الإصدار: 46



في
ميزان الإسلام



د. عبد الحليم عويس







في ميزان الإسلام

د. عبد الحليم عويس

الإصدار: 46 (أكتوبر 2011م / ذو القعدة 1432هـ)

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

د. عبد الحليم عويس:

من مواليد مصر، حاصل على الدكتوراه في التاريخ، عمل أستاذا للحضارة الإسلامية والتاريخ والثقافة ببعض الجامعات العربية والغربية، وله عضوية بالعديد من الهيئات، مثل اتحاد المؤرخين العرب، واتحاد الكتاب بمصر.

من مؤلفاته: «ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري»، و«التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون»، و «صفحات من جهود المسلمين في الحضارة الهندية» وغيرها...، كما شارك في الإشراف والتحرير بالعديد من الموسوعات العلمية.



نهـر متعـدد ... متجـدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

أكتوبر **2011**م / ذو القعدة **1432** هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

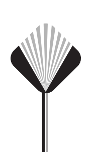
رقم الإيداع: **2011 / 160**

ردمك: **978-99966-05-00-0**

فهرس المحتويات




بسم الله الرحمن الرحيم



تصدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

تظل الأمة في حاجة ماسة إلى التذكير بقيم الإسلام وأخلاقه ، وتجديد أفهام أفرادها لمعطياته الإنسانية والحضارية،وخاصة إثر ما عصف بها من تحولات قيمية واجتماعية نتجت عن مراحل من الاحتكاك بالحضارات المجاورة .

ومع أن تلك التحولات كشفت عن عمق الخلل الفكري والتربوي والحضاري، إلا أنها ، وبالقوة نفسها ، أتاحت للمسلمين إعادة اكتشاف قيم الإسلام وآفاقه الممتدة في مجالات العدل واحترام الإنسان وتقدير العقل ، وتشجيع الحوار والتعاون.

ويأتي كتاب «في ميزان الإسلام» للدكتور عبد الحليم عويس ليلقي بعض الضوء على المرتكزات التي تتأسس عليها قيم الإسلام، ويعرض للإنجاز الحضاري الإسلامي في ميدان تقوية سلطة العدل ، وإحداث التوافق المتوازن بين الوحي والعقل، وتأكيد التعاون الإيجابي بين مكونات الأمة الإسلامية، وخاصة بين العلماء والأمراء لخدمة الدين ومصالح العباد.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى القراء الكرام، آملة أن يتحقق به النفع الكريم، وداعية المولى عز وجل أن يثيب عليه مؤلفه.

إنه نعم المولى ونعم المجيب...



مقدمة

حمدًا لله، وصلاة وسلامًا على رسوله الكريم، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وبعد:

تمثل تعاليم الإسلام هدايات ربانية تقود الإنسانية إلى مستواها الحضاري الذي ارتضته لها... إنسانية كريمة عادلة محبة للخير والجمال، ساعية إلى إنقاذ الأرض من عناصر الحقد والكراهية والظلم وامتهان كرامة الإنسان.

ومهما تقدمت البشرية، فستبقى هدايات الشريعة منارات سامقة تدعو إلى الارتقاء بالنوع الإنساني نحو آفاق من التوازن والاتساق والتكاملية الفعالة بين العديد من الثنائيات التي أرهقت الإنسان في تفكيره ومعاشه ومستقبله، وحولته إلى كتلة من الصراع والتناقض والتنافر بين مكوناته العقدية والنفسية ومحيطه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

وهذه الحالة المختلة تستدعي التذكير بقيم الإسلام الحضارية ، وتجديد النظر فيها، والبحث في مختلف الوسائل الكفيلة بتجليتها لدى الرأي العام الإنساني على اختلاف المشارب الدينية والفكرية والحضارية.

وما فصول هذا الكتاب إلا محاولة في هذا الاتجاه، مع حرصنا الشديد على التركيز على القيم الكبرى التي مازالت الإنسانية تتعثر في الاهتداء إلى أمثل الطرق لتحقيقها وإسعاد الأفراد والمجتمعات بفوائدها.

إن الحوار العالمي الذي دشن في السنوات الأخيرة بين الحضارات من شأنه أن يقدم فرصة تاريخية للمسلمين ليجلوا حقائق القيم الإسلامية، ويبرزوا مقاصد الشريعة في جعل الإنسانية تستروح معاني التكريم والعدل والتوازن بين العقل والدين .

وكلنا أمل في أن تكون مباحث هذا الكتاب خطوة في ذلك الطريق، سائلين المولى عز وجل أن يكتب لنا التوفيق والسداد، إنه سميع الدعاء.



الفصل الأول

العدل.. شرع الله

كان مصطلح « العدل » وما يزال من أهم المصطلحات في تاريخ الإنسان، وهو مصطلح شامل يتضمن العدل بين الحاكم والمحكومين، وبين الفرد والجماعة الكبيرة وهي المجتمع، والجماعة الصغيرة وهي الأسرة، بل إن الإنسان مطالب بأن يعدل في حق نفسه، ولا يظلم نفسه وأن يعدل في حق اللّه فلا يشرك معه غيره.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[2].

وفي فقه السياسة الشرعية أن (الحاكم العادل) غير المسلم، أو غير التقيّ أفضل للأمة من الحاكم المسلم الظالم، وقد علّل فقهاء السياسة الشرعية ذلك بأن الحاكم العادل للأمة عدل للأمة وعليه كفره أو فسقه، وأما الحاكم الظالم فعلى الأمة ظلمهُ، وله دينه أو تقواه الشخصية !!

والأمة الظالمة يُسلط عليها من يهزمها، حتى ولو تظاهرت بالإيمان، بينما يمهل اللّه الأمة الكافرة العادلة !!

والحضارة الحديثة ما ضلت إلا عندما نظرت إلى (العدل) نظرة تمزيقية فقررته في بلادها وبين مواطنيها إدراكًا منها لأهميته، ولكنها ظلمت الشعوب الضعيفة واحتلتها وأذلتها وفرضت عليها التخلف والتبعية، وحرمتها من التعليم والإبداع الكفيلين بتقدمها، بل إنها تظلم – نسبيًّا– العناصر الوافدة على بلادها وتمنعها من تكوين المؤسسات الكفيلة بحماية هويتها، فعدّلها عدلُ مصالح، وليس عدل عقيدة وأخلاق!!

لكن (العدل) في الإسلام ركن من أركان تنظيم الإسلام للحياة، وهو مقصد من المقاصد الشرعية التي يجب أن تدور الأحكام في فلكها.. فحيثما تحقق العدل فهناك شرع اللّه، ولا يمكن أن تتعارض هذه الأحكام مع هدف

١– لقمان: ١٣.
٢– الطلاق: ١.

كبير من أهـداف الحياة، والبشرية بتجاربها النسبية تريد عدلا نسبيًّا لا يضر بمصالحها، لكن الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين، والـذي يعلن أن الإنسانية ‌في خُسْران مبين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ‌في إقامة الحـق... هـذا الإسـلام يقيم دعائم الحق مع الحبّ والكره ومع النفع والضرر، ومع المصلحة وانعدام المصلحة، وبين المرأة والرجل، والفرد والمجتمع، و‌في الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على حد سواء.

وقد درج الناس على استعمال كلمة (العـدل) ‌في مستواها السياسي والاجتماعي، وكثيرًا ما يقيمون الثورات والنقابات والأحزاب من أجل جانب واحد من العدل، وبالتالي يتم التركيز على هذا الجانب فيقع الظلم ‌في الجوانب الأخرى.

وانطلاقًا من تجربة العصور الوسطى الأوروبية، ركزّ الغربُ على العدل الاقتصادي والاجتماعي، فأخطأ الطريق، لأنه تصور أن الفرد هو الذي يظلم المجتمع فسحق الفرد تحت مظلة الشيوعية، وتصور -مرة من خلال تجاربه النسبية- أن المجتمع هو الذي يظلم الفرد فسحق المجتمع والأخلاق تحت مظلة الرأسمالية، وأصبح مفهوم «الحرية» كرة يتداولها الفريقان كأنهما ‌في ملعب !!

بَيْدَ أن الإسلام وازن ‌في عدْله بين جميع القوى الفاعلة ‌في الحياة، وأعطى كل ذي حق حقه، فأصبح مفهوم «الحرية» منضبطًا متوازنًا لا يطغى فيه المجتمع على الفرد ولا الفرد على المجتمع، وأصبح مفهوم «المساواة» مفهوما شرعيًّا مرتبطًا بالعدل، فالعدل هو الميزان الـذي يضبط حركة الحرية وحركة المساواة، وهو أيضًا الضامن لتحقيق إنسانية كل الناس وكرامة البشر كلها.

* * *

- لقد جاءت تعاليم الإسلام لتكرم كل الناس بصفاتهم الإنسانية، بصرف النظر عن أصولهم وألوانهم وأديانهم... يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1].

- ويقول الله أيضا: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[2].

- ويقرر الإسلام في شريعته العدل لكل الناس، بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم ومدى قربهم من الإنسان أو بعدهم عنه... يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[3].

ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾[4].

وإذا كان الإسلام قد قرر كرامة الإنسان وأفضليته بصفته الإنسانية المطلقة المجردة، كما أنه قرر العدل بين كل الناس بصفتهم الإنسانية، بعيدًا عن النظر إلى أديانهم وأجناسهم. فإنه قد قرر أيضًا حرية الإنسان الدينية بصفة خاصة، حيث إن جوهر الأديان الصحيحة النازلة من السماء واحد لا يمكن أن يتناقض... يقول الله تعالى في القرآن للرسول عليه السلام مؤكدًا هذه الحقيقة ومعترفًا بهذه الأديان السماوية الصحيحة السابقة، ومطالبًا كل الأديان: (الإسلام والمسيحية واليهودية) بالاحتكام إلى الحق والعدل.. يقول تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾[5].

١- الإسراء: ٧٠.

٢- التين: ٤.

٣- المائدة: ٨.

٤- النساء: ٥٨.

٥- فصلت: ٤٣.

ويقول: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾[1].

ويقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[2].

فالإسلام مكمل للأديان السابقة وخاتم لها، ومطهرها مما أصابها من أهواء الناس، والمدافع الأعظم عن كرامة كل الأنبياء عليهم السلام وصدق دعواتهم... !! بالإضافة إلى هذه النظرة الكريمة السمحة إلى الأديان السابقة يؤكد الإسلام عبر آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة حرية العقيدة لكل الناس، فيقول الله ﷻ في القرآن:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[3].

ويقول أيضًا: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾[4].

ويقول: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[5].

ويقول: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[6].

١- المائدة: ٤٨.

٢- الشورى: ١٣.

٣- البقرة: ٢٥٦.

٤- الكهف: ٢٩.

٥- الأنعام: ١٠٧.

٦- يونس: ٩٩.

- لقد أخذ الإسلام بمبدأ الحرية الدينية قبل أن تعرفه دول الأرض جميعًا. وتقوم هذه الحرية الدينية في الإسلام على ثلاثة مبادئ:

١- الحرية في اختيار الدين.

٢- الحرية في المناقشات الدينية.

٣- الإيمان الصحيح ويكون مبنيًّا على إقناع واقتناع.

- وبالنسبة للمبدأ الأول: وهو الحرية في « اختيار الدين » الذي يعتنقه «الإنسان» فلا يرغم الإسلام أحدًا على ترك دينه واعتناق الدين الإسلامي.

وقد سار المسلمون على هذا المبدأ في حروبهم، فكانوا يتركون أهل البلاد المفتوحة وما يدينون به بشرط الولاء للحكومة الجديدة. وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابه إلى أهل بيت المقدس بعد فتحه: « هذا ما أعطى أمير المؤمنين إلى أهل إيلياء من الأمان... أعطاهم أمانًا لأنفسهم ولكنائسهم ولصلبانهم.. لا يكرهون على دينهم ولا يضام أحد منهم ».

ومن آثار الحرية الدينية ما رسمه الإسلام من حسن معاملة الذميين، إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[١].

- وبالنسبة للمبدأ الثاني: وهو حرية المناقشات الدينية، فقد أتيحت هذه المناقشات للمسلمين ولغير المسلمين، حتى إن الخلفاء أنفسهم كانوا يشتركون في تلك المناقشات، يقول الله في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾[٢].

١- الممتحنة: ٨، ٩.

٢- العنكبوت: ٤٦.

ويقول لأهل الديانات غير الإسلامية: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2].

وبالنسبة للمبدأ الثالث: وهو الإقناع والاقتناع قبل اعتناق الدين الإسلامي، بحيث لا يُرْغم أحداً على ترك دينه، لأنه لا جدوى من الإيمان بغير اقتناع، فالمسلم إذا كان ضعيف الإيمان، مخلخل العقيدة، لا يمكن الاعتماد عليه أو الاعتداد به... فكيف بإرغام غير المسلم ؟!! إنه لا يجوز بمنطق الإسلام !!

ولذلك يحث الإسلام على التفكير العقلي الجاد في مخلوقات الله والإيمان إيمانًا صحيحًا سليمًا. فقد رأى بعض الفقهاء أن إيمان المقلد غير صحيح. ويقول الإمام محمد عبده في ذلك: « إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وإن المرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به».

* * *

حقوق الإنسان بين العدل والمساواة:

من عظمة الإسلام أنه يمزج بين العدل والمساواة، فالحق أنه لا حرية ولا مساواة بلا عدل، وبلا شريعة حاكمة للناس جميعًا على قدم المساواة. وكل شعارات تنسى العدل ووسائل فرضه وحمايته هي شعارات فارغة المضمون تخدع المظلومين !!

وفي الإسلام تمتزج كلمة المساواة بكلمة العدل، فكأنهما كلمة واحدة،

١- البقرة: ١١١.

٢- آل عمران: ٦٤.

أو عملة ذات وجهين، وهذا حق لا شكّ فيه، فالعدل يفقد معناه إذا كان لأصحاب دين دون دين أو لقومية دون قومية، أو لطبقة دون طبقة، بل يجب أن يكون مطلقًا بلا حدود كما يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾[1].

فالمساواة في الحقوق والواجبات وأمام العدالة من الحقوق الأساسية للإنسان، ولا يجادل في هذه الحقوق إلا عدو للإنسانية.

وقد كان الإسلام أسبق من كل النظم المعاصرة، وأزكى في تقدير هذا الحق الفطري، وهو أن الناس في الإسلام سواسية لا تفاضل بينهم... فكلهم لآدم وآدم من تراب، ولا فرق بين الرجل والمرأة، والغني والفقير في القيمة الإنسانية، فلا تفاضل بين الناس في هذه الناحية إلا بالعمل الصالح والكفاءات الممتازة، وبما يقدمه كل فرد لربه، ولإخوانه ووطنه.

لقد قضى الإسلام على الطوائف والعصبيات الجاهلية، فلا تفرقة بين الطبقات، ولا بين العبيد والأحرار.. فكان الرسول ﷺ يقرب إليه كثيرًا من العبيد، ويقدمهم على بعض الصحابة والأحرار، كما كان يرسلهم قادة على الجيوش التي تضم بين صفوفها خيرة الصحابة وأجلاءهم، فلا تفرقة في الإسلام من أجل حسب أو نسب.. يقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

ولم يفرق الإنسان بين الحر والعبد –أيام كان هناك عبيد– بل جعلهما متساويين في القيمة الإنسانية، قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: «يا أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن

١– سورة النساء: ٥٨.

٢– النحل: ٩٧، وانظر الأستاذ توفيق علي وهبة: حقوق الإنسان بين الإسلام والنظم العالمية، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (مصر).

أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا أبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى... ألا هل بلغت؟! اللهم فاشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

ويروى أن أبا ذر الغفاري تناقش مرة في حضرة النبي مع بلال الحبشي، فاحتد أبو ذر على بلال وقال له: يا ابن السوداء، فغضب الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: «طف الصاع، طف الصاع» أي زاد الأمر عن حده «ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح»، فحزن أبو ذر ووضع خده على الأرض، وقال لبلال: «قم فطأ على خدي»، فليس في الإسلام إنسان أكرم من آخر بفضل حسبه ونسبه، بل الكل سواسية، ولا تفاضل إلا بالعمل الصالح فقط.

وهذا من الناحية الإنسانية البحتة...

أما أمام قانون الإسلام، فالمساواة قائمة كذلك، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ﴾ [1].

وقال أيضا: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [2].

وقال كذلك: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [3].

وينبئنا التاريخ الإسلامي أن تلك القواعد السمحة القويمة حول المساواة أمام القضاء كانت منفذة بحذافيرها أيام الرسول والخلفاء الراشدين، فيروى أن أسامة بن زيد وهو من أحبّ الصحابة إلى رسول الله، جاء إلى

١- البقرة: ١٧٨.

٢- المائدة: ٤٥.

٣- النحل: ١٢٦.

النبي ﷺ ليشفع في فاطمة بنت الأسود المخزومية، وكان قد حكم عليها بحد السرقة حيث إنها سرقت قطيفة وحليًّا، فغضب رسول الله ﷺ وأنكر موقفه على الرغم من حبه له، ولم تشفع له منزلته من رسول الله، وقال له ﷺ: «أتشفع في حدّ من حدود الله » وقام فخطب في الناس وقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» [1] !!

ولقد شكا يهودي عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عمر بن الخطاب في خلافة عمر، فلما مثل بين يديه خاطب عمر اليهودي باسمه، على حين خاطب عليًّا بكنيته فقال له: «يا أبا الحسن» حسب عادته في الخطاب معه، فظهرت علامات الغضب على وجه عليّ، فقال له عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهوديًّا، وتمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة، فقال عليّ: لا، ولكني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه، بل فضلتني عليه إذ خاطبته باسمه، بينما خاطبتني بكنيتي...!!

ويروى أن ابن عمرو بن العاص ضرب رجلا من عامة المصريين، حينما كان أبوه واليًا على مصر، فأقسم المجني عليه ليشكونه إلى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»، فقال له: «اذهب فلن ينالني شيء من شكواك، فأنا ابن الأكرمين»، وبينما كان الخليفة عمر بن الخطاب مع خاصته ومعهم عمرو بن العاص وابنه في موسم الحج، قدم هذا الرجل عليهم، وقال مخاطبًا عمر: يا أمير المؤمنين إن هذا وأشار إلى ابن عمرو ضربني ظلمًا ولما توعدته بأن أشكوه إليك قال: « اذهب فأنا ابن الأكرمين ».. فنظر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى «عمرو» وقال قولته المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» ثم توجه إلى الشاكي وأعطاه درته، وقال له: «اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك» !

* * *

١- متفق عليه.

وهكذا من الناحيتين الإنسانية والقضائية تتجلى «المساواة» التي وضعها الإسلام بين الناس، فلا فضل إلا بالعمل الصالح في الدنيا والآخرة... وأديانهم وأحسابهم موكولة إلى الله يوم القيامة، أما في هذه الدنيا فالشريعة تقوم على العدل والمساواة بين الناس جميعًا.

* * *

الأفضلية بين الدين والجنس:

كان اليهود بالدين الصحيح الذي أنزله الله على موسى الأمة المفضلة على العالمين، فلما خانوا أمانة الوحي، وحولوا الأمر إلى أفضلية عنصرية، حول الله الوحي عنهم إلى المسلمين العرب، وجعلهم بالرسالة خير أمة أخرجت للناس.

لكن الإسلام يرفض أن يكون ذلك مرتبطًا بالجنس، بل يأمر بوضوح أن يكون ذلك مرتبطًا بالعقيدة الصحيحة والأخلاقيات والقيم، فلا خيرية إلا بالقيم المفتوحة لكل الناس، ولا يسمح القرآن بالظلم أو الاستعلاء اعتمادًا على هذه الخيرية المشروطة، بل يفرض الأدب والحوار الأخلاقي مع المجتمع: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۢ ﴾[1].

﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[2].

ويأمر المسلمين بأن يتركوا أمر الفصل النهائي في الأفضلية لله هناك في الآخرة، وليس في هذه الدنيا، وأن يلتزموا بالأدب مع مخالفيهم، بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[3].

١- آل عمران: ٦٤.

٢- سبأ: ٢٤.

٣- الأنعام: ١٠٨.

ومأساة الإنسانية المعاصرة تتجسد في موقفين:

- موقف الذين عرفوا من أهل التوراة، وهو الموقف القوي المنظم والفاعل المؤثر والعالي، والأخذ بكل أسباب القوة والهيمنة، وهم الذين يفرضون المفهوم العنصري الاستعلائي اللا قيمي على العالم، وتبدو الحضارة الأوروبية مخدرة ومغيبة أمام هذا الضغط العدواني !!
- موقف المسلمين المنهزم المتخاذل المتآكل داخليا، والمتصارع بين أجزائه سياسيًّا وفكريًّا.. والمتخلف حضاريًّا....وهم أهل القرآن الذي يحمل مشروعًا إنسانيًّا غير عنصري!!

وهذه المأساة الإنسانية المتجسدة في هذا الخلل تجعل أصحاب الموقف الأول يمتدون في فراغ دون مقاومة تذكر، ودون وجود حقيقي للطرف الآخر، بحيث يلفت إليه أنظار العالم الذي يشعر بالأزمة الإنسانية المعاصرة ويكتوي بنارها، ويكاد يبصر آفاق المستقبل المظلم الذي ينتظره.

وليس ثمة من أمل في إنقاذ سفينة البشرية إلا بيقظة إسلامية تكفل وعي المسلمين بذاتهم وحقيقتهم ورسالتهم، كأمة شهيدة على الناس، قائمة بالدعوة إلى الحق والعدل والمساواة التي أمر الله بهما سبحانه وتعالى في آيات قرآنية كثيرة، نكتفي منها بهذه الآية الكريمة التي تعد قانونًا شاملا، وخطابًا إنسانيًّا عامًّا، وميزانًا عادلا ثابتًا ينظم كل الناس..

يقول الله في القرآن الكريم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

فالناس جميعًا سواسية، واختلافهم للتعاون والتعارف، والتفاضل يكون بالعمل المقرون بالصلاح. وحسابهم بعد ذلك على الله..

١- الحجرات: ١٣.

وأما اختلاف الألوان والأجناس فلا قيمة له أمام عدل الله، وشريعة الله، وموازين الله التي تزن الأمور بميزان عادل دقيق: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [1] صدق الله العظيم.

*****

١- الزلزلة: ٧، ٨.



الفصل الثاني

التكافل الاجتماعي

إطار التكافل الاجتماعي الإسلامي:

عندما نتحدث عن التكافل الاجتماعي في الإسلام يجب أن نعلم أننا نعالج عضوًا في جسد، وجزءًا من كل؛ فالتشريع الإسلامي بينما يعالج قضايا الحياة المختلفة –اجتماعية كانت أو اقتصادية– فإنه يبقى دائما نسيجًا محكمًا لا ينفصل فيه جانب عن الجوانب الأخرى. بل إن التشريعات الإسلامية كلها لا تنفصل عن الإسلام (الكل) وبالتالي لا بد للتشريعات أن تقوم وفق عقيدة نقية، وأن ترتبط بالجوانب الأخلاقية والعبادية.

ولعل هذا الارتباط بين الجزء والكل أهم الفروق بين الإسلام والفلسفات الاجتماعية والاقتصادية الوضعية التي تعالج قضايا الإنسان بطريقة تمزيقية، وقد يدفع هذا إلى تضخيم الجانب الذي تعالجه على حساب الجوانب الأخرى، كما أنه يدفعها بالتأكيد إلى التعامل مع الإنسان –في إطاره الشامل– بطريقة خاطئة.

والتكافل الاجتماعي نوع من التقّعيد النظري الرحيم للأسس الصالحة لقيام المجتمع البشري المتماسك الذي لا تقوم العلاقة فيه على أساس القواعد التشريعية فحسب –حتى مع شمولية هذه القواعد وسموها– بل قد توجب بعض الحالات الارتفاع فوق هذه القواعد؛ وذلك مثلما فعل الأنصار مع المهاجرين عندما شاركوهم في دورهم وأموالهم، بل وقد عرض الأنصار على إخوانهم المهاجرين أن يقتسموا معهم هذه الأموال والعقارات مناصفة... فهذا نوع من الإيثار (والتكافل) لم يجعله الشرع فرضًا، وتركه للمستوى الأخلاقي للمسلمين في ظلّ معاني الرحمة والأخوة الإسلامية.

ومن العجيب أن الأنصار لم يعطوا ما أعطوا استشعارًا منهم بواجب شرعي تُمليه عليهم قواعد تشريعية، وإنما فعلوه بنوع غريب من الحبّ، ودرجة كبيرة من الإيثار خالية تمامًا من مشاعر الأثرة والشحّ... قال تعالى في تصوير هذه الحالة الفريدة في التاريخ: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ

مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

ومن السياق السابق نعلم أن التعامل مع الجوانب الاجتماعية في الإسلام يقف فوق أرضية عقدية وفكرية ونفسية وأخلاقية معينة، وأن المسلم يعالج هذه القضايا في إطار مفاهيمه الإيمانية الكلية، فهو لا يقوم بها؛ لأنها أوامر قانونية، ولا قضايا مصلحية عامة، يتبادل فيها الفرد والمجتمع الخدمات بطريقة جدلية تبادلية.. وقد تنتهي هذه العلاقة بمجرد الشعور بانقضاء المصلحة، أو بالتحايل على القانون، فالأصل العقدي والعباديّ للقضايا الاجتماعية في الإسلام، والمنهج الذي يجعلها جزءًا من كل لا تنفصل عنه... هذا الأصل وهذا المنهج يجعلان للتكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم قسمات خاصة ينفرد بها عن كل النظريات الاجتماعية التي ظهرت في القديم والحديث.

ويؤكد لنا أن هذه النظريات كانت تنظر إلى التكافل الاجتماعي على أنه مجرد تنظيم للعلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع، وتمنع طغيان أحدهما على الآخر، وتضع الأسس التي تضمن تَسَانُد المجتمع أفرادًا وطبقات، وتتيح للجميع قدرا متكافئًا من الفرص والحقوق، وتلزم الجميع بقدر عال من الواجبات...

- وهذه النظرة – كما نرى – تضع التكافل الاجتماعي بعيدًا عن الشعور الروحي منْحصرًا في مستوى قانوني ومصلحي بَحْت...!!
- بينما تؤكد لنا الحقائق الموضوعية والتجارب الإنسانية أن الإنسان – كفرد أو كأسرة أو كمجتمع صغير أو كبير– لا يمكن أن يحافظ على

١- الحشر: ٩.

كيانه الروحي والمادي بالقانون أو المصلحة وحدها...

- ومع هذا فإن التجارب الاجتماعية الحديثة قد سقطت في هذا التصور حين غلَبت النزعة المادية عليها، فماتت فيها الروح الإنسانية، وذبلت القيم الدينية، وأصبحت الحياة حلبة سباق من أجل تحقيق مزيد من الترف والرفاهية والاستهلاك... ولولا قوانين الضرائب الصارمة التي يفرضها القانون والشرطة لتعرضت هذه المجتمعات لانهيار كامل.

- وفي المقابل نجد الدول الإسلامية (عبر التاريخ الإسلامي) قد تعرضت لنكسات كبيرة، وقد عجزت مؤسسات الدول في كثير من الظروف عن توفير الحاجات الأساسية للمجتمع من غذاء وكساء ودواء وتعليم، فقامت الأمة المسلمة، بدوافع الإيمان والعقيدة، بسدّ الاحتياجات التي عجزت عنها مؤسسة الدولة..

- ومن هذا المنطلق نشير إلى الربط العضوي القائم بين مصطلحات «الأمة» و«المجتمع» و «التكافل الاجتماعي». وأخيرًا يأتي مصطلح «الدولة» الذي يقوم بدور خطير، لكنَّ الأمة مع ذلك لا يجوز لها أن تَيْأَسَ ولا أن تترك التكافل الاجتماعي في الحالات التي تعجز فيها الدولة عن القيام بهذا التكافل، أو الحالات الأخرى التي تتنكَّر فيها الدولة لرسالتها، وتخدم شرائح معينة، وتهمل الشرائح الاجتماعية الوسطى والضعيفة!!

وانطلاقًا من هذا الإطار الذي يضع الإسلام فيه مصطلح «التكافل الاجتماعي» في موقعه الصحيح نعالج المفهوم الإسلامي العلمي لهذا المصطلح.

* * *

مصطلح التكافل الاجتماعي في الإسلام:

يقصد بمصطلح التكافل الاجتماعي تضامن أبناء المجتمع وتساندهم سواء كانوا أفرادًا أو طوائف أو حكّامًا أو محكومين، وذلك بدوافع إيمانية نبيلة تهدف إلى غايات كريمة تنتهي إلى تحقيق الرعاية الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية لجميع أبناء المجتمع، وذلك بتوفير الاحتياجات الأساسية من مأكل ومشرب ودواء وكساء وتعليم.. بالإضافة إلى مقاومة كل من يحاولون خرق سفينة المجتمع كالمحترفين والمحتكرين والآكلين للأموال بالباطل بشتى الصور!!

وهذا التكافل الاجتماعي، بهذا المفهوم الإسلامي، تقرره الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التالية، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾[3].

ويقول الرسول ﷺ: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا »[4]، ويقول ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه »[5] ويقول ﷺ: « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من

١- المائدة: ٢.

٢- الحديد: ٧.

٣- البقرة: ٢٦٧.

٤- رواه البخاري ومسلم.

٥- أخرجه البخاري.

الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا »[1].

- ولعل الحديث التالي أصرح في الدلالة على التكافل الاجتماعي انطلاقًا من واقع عملي عاشه الرسول مع المسلمين، فقد روى مسلم وأبو داود أن الرسول ﷺ قال - وكان في حال سفر وشدة -: « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له. ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له...». قال أبو سعيد الخدري – راوي الحديث: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منّا في فضل..

بَيْدَ أننا نؤكد – مرة أخرى – على حقيقة شمولية التكافل الاجتماعي في الإسلام للجوانب المادية والروحية لأنه في النهاية يعني شعور الجميع بمسؤولية بعضهم تجاه بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول على أخيه، ويسأل عن نفسه ويسأل عن غيره[2]. ولهذا كان للتكافل شعبتان: شعبة مادية: وسبيلها مد يد المعونة في حاجة المحتاج وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، والإسهام العملي في إقامة المصالح العامة. وقد أطلق الإسلام على هذا النوع من التعاون المادي عناوين مختلفة تشمل أنواعًا مختلفة من العلاج والتكافل مثل (الإحسان – الزكاة – الصدقة – الحق المعلوم – الإنفاق في سبيل الله – كفالة اليتيم – صلة الأرحام... إلخ) لكن هذه العناوين الدالة على أنواع من التكافل تتكامل كلها لتقدم نسيجًا من التكافل المادي في الحياة الاجتماعية.

- أما الشعبة الثانية فهي الشعبة الأدبية: ونعني بها تكافل المسلمين جميعًا وتعاونهم المعنوي بالتعليم والنصح والإرشاد والتوجيه.. أو بإيجاز:

١- أخرجه البخاري.

٢- الشيخ محمود شلتوت – الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٤٤- ط٣، دار القلم، ١٩٦٦ مصر.

التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قولا وفعلا.. والإسلام يجعل هذا التكافل الأدبي فريضة لازمة على كل مسلم، بل جاء على لسان الرسول ﷺ أنه الدين كله بالنسبة لجميع الطبقات [1] «الدين النصيحة» قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وهكذا يتضح لنا – بجلاء وتركيز شديدين – أن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يعني مجرد المساعدات المادية – أيا كانت صورتها – كما تعني كلمات مثل الضمان الاجتماعي أو التأمين الاجتماعي.. بل يمتدّ المضمون الإسلامي للتكافل ليصبح نظامًا لتربية روح الفرد وضميره وشخصيته وسلوكه الاجتماعي، ونظامًا لتكوين الأسرة وأساليب تكافلها، ونظاما للعلاقات الاجتماعية –بما في ذلك العلاقات التي تربط الفرد بالدولة– وأن يكون في النهاية نظامًا للمعاملات المالية، والعلاقات الاقتصادية التي تسود المجتمع الإسلامي [2].

* * *

أهمية التكافل المعنوي:

قد يتصوَّر بعضهم أن التكافل المعنوي والأدبي والأخلاقي والروحي أقل رتبة من التكافل المالي والاقتصادي.. بل قد يعتبرونه نوعًا من الهروب من الإطار الحقيقي للتكافل الاجتماعي المادي..

ونحن لا نوافقهم على رأيهم هذا.. بل إننا نرى أن التكافل المادي لاتتحقق أهدافه إلا بالوقوف فوق الأرضية المعنوية والأدبية.. ونرى أيضا أن التكافل المعنوي هو الذي يضمن فعالية التكافل المادي.. فما معنى أن يتكافل

١- الشيخ محمود شلتوت – الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٤٤- ٣٤٥- طبع مصر.

٢- من كتاب الدورة الثالثة، حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية، ص ٧٠٧ « نقلا عن عبد الله ناصح علوان: التكافل الاجتماعي في الإسلام ص ٢١ » نشر دار السلام مصر ط ٤؛ ١٤٠٣هـ.

المسلمون ماديًّا- في بلاد الاغتراب [1] مثلا - التي قد تُقدِّم فيها الدولة ألوانًا من الضمان الاجتماعي المادي بينما يتْرك بعضهم بعضًا ينحدر في عقيدته وعبادته وأخلاقه. بحيث يكاد يذوب في القيم الانحلالية والمادية واللاأخلاقية التي تفرضها عليه – في الشارع والإعلام – المنظومة القيمية اللادينية ؟!!

- وهكذا فإنه على الرغم من أن الإسلام قدم إطارًا قانونيًّا متكاملا لتحقيق العدالة الاجتماعية المادية، فإن الأساس المعنوي يقوم على مخاطبة الإنسان من داخله، وليس مجرد قيادته من ظاهره، وتحريك ضميره بدل سوقه بالقوة القاهرة، واستجاشة مشاعر الفطرة النبيلة بدل تحويل الحياة إلى صراع كئيب. والحق أن الإسلام في تشريعه الاجتماعي قد اعتمد هذا الأساس المعنوي على نحو لم تصل إليه أرقى النظم التي ظهرت في التاريخ، وقد أطلق على هذا الأساس اسم « التكافل الاجتماعي » شاملا المعنويات والماديات.

- ولئن كانت بعض البلدان غير الإسلامية قد بدأت تلجأ إلى أسلوب التكافل الاجتماعي عن طريق ما يسمى بالجمعيات الخيرية ومؤسسات البر والمستوصفات والمستشفيات المجانية والضمان الاجتماعي وحماية الضعفاء وما إلى ذلك.. إذا كان الأمر كذلك فليس ما تفعله هذه الدول إلا تقليدًا متأخرًا منها لما أنتجته الحضارة الإسلامية منذ أربعة عشر قرنًا، بعد أن طحنتها القوانين الجافة وأساليب الصراع الاجتماعي !!

وفي هذا العصر، حيث أصبح العالم قرية إعلامية أو إلكترونية تنتشر قيم اللادينية والمادية والانحلالية والذاتية والأنانية التي لا تأبه بالمصلحة الكبرى للدين أو للأمة أو للجماعة.. في هذا العصر – ولا سيما في

١- مثل بلاد أوربا وأمريكا وأستراليا.

بلاد الأقليات يحتاج المسلمون إلى توظيف المساجد والمراكز الإسلامية والجمعيات الخيرية توظيفًا معنويًّا ودينيًّا يتكافلون من خلاله في تحقيق قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [2]... ربما بدرجة أكبر من تكافلهم في الجوانب المادية التي يعدّ التكافل فيه أمرًا منظمًا ومتفقًا عليه، وتساعد عليه الدول مساعدة إيجابية في بلاد الاغتراب، بينما تبقى الشخصية الإسلامية معرضة لأكبر الأخطار... بل إنّ بعضا من هذه الدول تضع خططًا محكمة لتذويب المسلمين فيها، وقد تصف كل من يتمسك بشخصيته بالتطرف والمبالغة، وتعتبر المسلم المتحرر هو المسلم الذي يشرب الخمور ويتجاوز في العلاقات الاجتماعية.

وفي ضوء هذا، فإن تكافل المسلمين المعنوي والفكري والسلوكي في بلاد الغربة أشد حاجة من التكافل المادي.. بل هو الطريق لبقاء الأواصر والعلاقات – بصفة عامة – بين المسلمين؛ فلن يكون ثمة التقاء تكافلي أو غير تكافلي حين يصبح بعض المسلمين شيوعيين وبعضهم علمانيين متحللين وبعضهم يعيشون لأنفسهم وشهواتهم وجمع ثرواتهم، ولا يفكرون في الآخرين ولا يهتمون بأمر المسلمين.. ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم..!!

- ومن هنا تتضح ضرورة التفكير في تنمية مساحة التكافل المعنوي.. واستحداث صور اجتماعية جديدة لها.

* * *

١- العصر: ٣.

٢- المائدة: ٢.

صور التكافل الاجتماعي في الإسلام:

تتعدد صور التكافل الاجتماعي في الإسلام، فتمتد إلى كل العلاقات الاجتماعية، لكننا نستطيع أن نوجز أهمها في المظاهر التالية:

١- **التكافل الخلقي**: ويقصد به إيجاد تعاون اجتماعي عام لإيجاد روح اجتماعية تنكر المنكر وتشيع المعروف، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [١].

فكل فرد في المجتمع الإسلامي، وكل مسؤول عن موقع ما، مهما اختلفت المستويات والطاقات، مسؤول عن إشاعة المعروف وإزالة المنكر: « من رأى منكم منكرًا فلغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » [٢].

كما أن المجتمع، أفرادًا وحكومات، مسؤول عن حماية دماء الناس وأعراضهم وأموالهم « كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه » [٣] وذلك ليشيع الأمن والخير والحب في المجتمع.

٢- **التكافل الذاتي**... أي رعاية الإنسان لنفسه، عن طريق تزكيتها بالإيمان والعمل الصالح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٤].

والارتفاع بها والسير في طريق النجاة: ﴿ تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٥].

٣- **التكافل الأسري**.. أي رعاية الإنسان لأهله.. لوالديه وإخوته وزوجته وأولاده، وقد روى النسائي عن طارق المحاربي قال: قدمت المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: « يد المعطي العليا

١- آل عمران: ١٠٤.

٢- رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

٣- رواه الشيخان.

٤- الشمس: ٩، ١٠.

٥- البقرة: ١٩٥.

وابدأ بمن تعول: أمك وأباك فأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك »، ومن ذلك أيضا قول الله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ [1].

٤- وهذا التكافل الأسري يمتد ليشمل كل ذوي الأرحام، وقد أعطى الإسلام ذوي القربى حقوقًا من حقهم أن يطالبوا بها قانونيًّا.. قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [2].

« وقيمة هذا التكافل في محيط الأسرة أنه قوامها الذي يمسكها، والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وهي تقوم على الميول الثابتة في الفطرة الإنسانية، وعلى عواطف الرحمة والمودة، ومقتضيات الضرورة والمصلحة»[3].

٥- **حق الجار**: والقرآن الكريم يقول في حق الجار:

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ ﴾ [4].

وقال أبو ذر الغفار رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: أوصاني خليلي ﷺ: « إذا طبخت فأكثر المرق، ثم انظر بعض أهل البيت من جيرانك فاغرف لهم منها » [5].

وليس الجار هو الملاصق كما يظن بعض الناس، فقد روي في الآثار أن أربعين دارًا جار، وفسرها بعضهم بأربعين من كل جهة من الجهات الأربع، فأهل كل حي إذن جيران بعضهم لبعض، قالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله، إن لي جارين، إحداهما مقبل عليَّ ببابه والآخر ناء ببابه عني،

١- البقرة: ٨٣.

٢- الإسراء: ٢٦.

٣- سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص ٦٥، دار الشروق – مصر.

٤- النساء: ٣٦.

٥- رواه مسلم.

وربما الذي كان عندي لا يسعهما، فأيهما أعظم حقًّا؟ فقال «المقبل عليك ببابه» [1] فالإسلام يريد أن يجعل من الحي والشارع وحدة متكاملة متعاونة بحيث يحمون ضعفاءهم، ويطعمون جائعهم، ويكسون عاريهم، وإلا برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله، ولم يستحقوا الانتماء إلى مجتمع المؤمنين[2].

٦- وللفقراء والمعوزين حق في مال الأغنياء، إلى أن يكتفوا إذا لم تكفهم الزكاة المفروضة، يقول الإمام أبو محمد علي بن حزم المتوفى سنة (٤٥٦هـ) في موسوعته الفقهية «المحلى» عن ذلك، «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكاة بهم، ولا في سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بدّ منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة...».

وقال ابن حزم: «ولا يحل لمسلم مضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعامًا فيه فضل على صاحبه لمسلم أو لذمي؛ لأنه فرض على صاحب الطعام إطعام الجائع، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير، وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قتل المانع فإلى لعنة الله، لأنه منع حقًّا، وهو طائفة باغية» [3].

٧- **كفالة أهل الذمة:** ففي المجتمع الإسلامي، يمتد التكافل ليشمل المنضوين تحت مظلة المجتمع الإسلامي، وقد أقر الإسلام لأهل الذمة من أهل البلدان التي فتحها المسلمون حقوقًا تمنحهم الأمان والاطمئنان على معتقداتهم، إذا شاءوا البقاء عليها، ما لم يقفوا في وجه الإسلام بطريق أو بآخر. وفي سلوك الرسول عليه الصلاة السلام في المدينة مع

١- انظر: «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام»، للدكتور يوسف القرضاوي، ص ١٣.

٢- المصدر السابق.

٣- المحلى ج ٦ كتاب الزكاة مسألة ٧٢٥.

اليهود.. وسلوك المسلمين مع اليهود.. وسلوك المسلمين بعد ذلك على امتداد التاريخ ما يؤكد سمو المعاملة التي عومل بها هؤلاء. ونحن نجد في كتب «النظم الإسلامية» مثل كتاب «الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سلام وكتاب «الخراج» لأبي يوسف، وكتاب «الخراج» لقدامة بن جعفر، وكتاب «الأحكام السلطانية» لأبي الحسن الماوردي [1] - نجد في هذه الكتب وغيرها تفاصيل المعاملة النادرة السامية التي عومل بها هؤلاء الذميون.

ولعل من أكبر صور السموّ في المعاملة تلك الكفالة الاجتماعية التي ضمنها المجتمع الإسلامي لهؤلاء في حالات عجزهم وضعفهم، وقصة عمر بن الخطاب مع اليهودي وفرضه له مالا راتبًا من بيت مال المسلمين أكبر دليل على ذلك.

٨ - **حق الأطفال والأبناء:** فكما للوالدين حقوق فإن للأبناء حقوقًا أيضًا.

وتؤخذ نفقة الأطفال والأبناء ووجوبها الشرعي على الأب من عموم قول الرسول ﷺ لهند بنت عتبة: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف».

كما يؤخذ ذلك أيضا من قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [2].

وتفيدنا الآية الكريمة أنه إذا مات الوالد فإن نفقة الأطفال الذين يتركهم تعود إلى ورثة هذا الفقيد، وحتى لو لم يترك الوالد الميت شيئًا، فإنهم يُلزمون بالإنفاق على أطفاله القاصرين حسب ميراثهم الذي كان من الممكن أن يأخذوه لو ترك شيئًا. أفيأخذون أمواله وعقاراته في حال الغنى، ولا يكفلونه

١- د. حسين مؤنس. عالم الإسلام، ص ٢٩٥، طبع مصر.

٢- البقرة: ٢٣٣.

في تبعاته في حال الفقر؟ إن هذا لا يجوز في لغة العقل ولا في لغة العدل. وقد وقف الإمام ابن حزم – رحمه الله – في وجه من خالفوا هذا الرأي، وردّ أقوالهم واستشهد لقوله الذي ذهب إليه بما فعله ابن مسعود حين جعل نفقة الصبي من ماله وقال لوارثه: أما أنه لو لم يكن له مال لآخذناك بنفقته.

كما استشهد بقول الحسن البصري: نفقة الصبي إذا لم يكن له مال على وارثه. وفسر الحسن البصري قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ بالنفقة، ويقول ابن جريج: قلت لعطاء: أيجبر وارث الصبي – وإن كره – بأجر مرضعته إذا لم يكن للصبي مال؟ قال: أفندعه يموت ؟ وهكذا ينشأ الطفل في الإسلام محفوظًا برعاية كاملة من أبيه أو وارثه أو رحمه، وتكفل أمه وحاضنته حماية له وكذلك مرضعته، وعلى الدولة المسلمة أو الأمة في حالة عدم وجود دولة –بعد ذلك– مساعدة الأسرة على حماية الطفولة وتوفير متطلباتها، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنح كل رضيع معاشًا دوريًّا ثابتًا في حدود الكفالة الصحيحة والعدل الصحيح.

وعلى المجتمع المسلم – دولة أو أكثرية أو أقلية – أن يقوم بهذا الدور بالنسبة لجموع أطفال المسلمين وأبنائهم.. هذا في الناحية المادية والعضوية.. أما في الناحية المعنوية، والأدبية المتصلة بالعقيدة والقيم، فمن واجب المسلمين التكافل والتعاون على تنشئة الأبناء تنشئة إسلامية عن طريق إنشاء المحاضن ذات المنهج الإسلامي والأهداف الإسلامية، ويتأكد هذا في عالم الأقليات الإسلامية لوجود ضغوط استلابية تحاول صناعة الأبناء وفق منظومة القيم البعيدة عن الإسلام.

ومن المعروف أن العديد من المدارس الأجنبية الخاضعة للدول الأوربية وثقافتها، والهيئات التبشيرية تقدم صياغة علمانية للحياة لا تخلو من مسحة تنصيرية إلا ما ندر، وقد ساعد على نجاح هذه المدارس ما تمتاز به من وسائل النظام والنظافة وأساليب التربية الحديثة ووسائل الإيضاح

وتعليم اللغات، ونتيجة هذا فقد أصبحت هذه المدارس في كثير من البلدان العربية والإسلامية المقصد الذي يقصده كل القادرين على دفع نفقات التعليم فيها، أو الذين يتاح لهم إدخال أبنائهم فيها بصورة أو بأخرى.

وقد أتيح لي شخصيًّا أن أعمل في واحدة من أشهر هذه المدارس خلال الستينات، ولم تتحمل هذه المدرسة اتجاهي الإسلامي لأكثر من عام واحد، وذلك لأن برنامجها التنصيري لم يكن يخفى عليّ فاستعملت الحكمة في الحفاظ على الشخصية والعقيدة الإسلامية، لكن هذه الحكمة لم تكن لتخفى عليهم، فهم أكثر الناس حكمة ودهاء في الوصول إلى أغراضهم التبشيرية !!.

وفي ضوء هذه المفسدة المظنونة – على الأقل – إن لم تكن محققة في هؤلاء الأبناء الصغار الذين لا حضانة لديهم، فإن من السهل التعرف على الحكم الشرعي من خلال قاعدتين أصوليتين:

– قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

– قاعدة سد الذرائع، وأن ما يؤدي إلى الحرام حرام، فكيف وهذا الحرام يمسّ عقيدة المسلم نفسه.

٩- **رعاية اللقيط**.. واللقيط إنسان ولد لا يعرف والده ولا أمه، ومن حقه أن يلتقطه الناس من الشوارع ويأثمون إن لم يرعوه وتركوه يهلك، تقديرًا من الإسلام لحق الحياة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

ومن واجب الأمة المسلمة – دولة كانت أو أقلية أو جماعة مهما صغرت – أن ترعى هذا اللقيط وتعمل على تنشئته تنشئة إسلامية سوية وتعلمه مهنة يرتزق منها، وليس كل لقيط من زنا، فقد يكون أبواه قد ماتا في ظروف

١- المائدة: ٣٢.

غامضة، أو افترقا، أو افتقرا فقرًا مدقعًا. ويتولى من يشاء رعاية اللقيط بشرط أن يكون مسلمًا، عاقلا، بالغًا، حرًّا، قويًّا، خبيرًا بشؤون التربية، وعدلا. وفي كتب الفقه باب مستقل عن (اللقيط) يتناول كافة حقوقه الإنسانية وواجبات المجتمع نحوه حتى ولو كبر وارتكب خطأ يوجب غرمًا ماليًّا لا يستطيع دفعه وجب على الإمام أن يتولاه عنه، وإذا ادعى نسب اللقيط رجل أو امرأة حكم لهما به، وإذا حدث تنازع عليه من أكثر من رجل وامرأة استعملت طرق الإثبات المختلفة، كأساس لمن تنطبق عليه الشروط.

١٠- **كفالة اليتيم:** واليتيم من مات أبوه وتركه صغيرًا ضعيفًا يحتاج إلى من يكفله، وقد حث الإسلام على إكرام اليتيم فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾ [١]. وقال: ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ [٢]. وقال: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ [٣]. وقال: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [٤]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ [٥].

وفي الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين» وأشار بإصبعيه، يعني السبابة والوسطى.

وهذا يوجب على المسلمين استحداث آليات وصور تطبيقية في محيطهم الإسلامي، ولاسيما في بلاد الاغتراب لرعاية اليتامى حتى لا يوضعون في محيط غير إسلامي، فعليهم افتتاح الدور لرعاية الأيتام تحت إشراف المراكز والمؤسسات الإسلامية والجمعيات الخيرية والقائمين على شؤون المساجد.

١- الضحى: ٩.

٢- الفجر: ١٧.

٣- الماعون: ١،٢.

٤- الأنعام: ١٥٢.

٥- النساء: ١٠.

١١- كفالة أصحاب العاهات والشيوخ والعجزة والمنكوبين: وكفالة هؤلاء تدخل في نطاق قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [١]. وقوله تعالى أيضا: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [٢].

وفي نطاق قوله عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» [٣].

وأصحاب العاهات هم الذين فقدوا عضوًا من أعضائهم أو خرجوا إلى الحياة ببنية هزيلة، وذلك مثل العميان، والصرعى، والمعتوهين، وأصحاب العيوب الكلامية، والأمراض المزمنة، وأمراض الشيخوخة [٤].

وقد جاء في كتاب خالد بن الوليد إلى أهل الحيرة ما نصه: «وجعلت لهم أيمًّا شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيًّا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزِّيته، وعيل من بيت المال وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام » [٥].

ورعاية هذه الشرائح تقتضي إقامة الدور الصالحة لأوضاعهم وتغذيتهم والإشراف عليهم، فإذا كانوا يقيمون مع أهلهم فإن دور رعايتهم تقوم بتعليمهم العلوم النافعة والمهن المناسبة. أما الشيوخ والمنكوبون فينبغي أن يلقوا الرعاية المعنوية والمادية المناسبة؛ لأنه لا يصلح في الإسلام أن يعيش

١- المائدة: ٢.

٢- آل عمران: ١٣٤.

٣- متفق عليه.

٤- انظر: عبد الله — التكافل الاجتماعي في الإسلام، ص ٦٣ وما بعدها.

٥- من كتاب الخراج لأبي يوسف، ص١٤٤.

المسلم لنفسه وأولاده وأرحامه تاركًا مساحة الحياة الاجتماعية لا يتعاطف معها ولا يهتم بأمرها؛ لأن مثل هذا المسلك يتعارض مع قوله عليه الصلاة والسلام: « ترى المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [١].

١٢- **رعاية الشواذ والمنحرفين والمطلقات والأرامل:** هذه الصور من الشذوذ على قاعدة الحياة السوية -وربما غيرها- سواء أكانت ناشئة عن عيوب اجتماعية وأخلاقية أم ناشئة عن خلل في الحياة الأسرية أو العلاقة الزوجية، وسواء تعلقت بالرجل أو بالمرأة أو كانت بتأثير العوامل الداخلية كسوء التربية المنزلية وإهمال الوالدين للأبناء أو بتأثير العوامل الخارجية كرفقاء السوء أو مشاهدة الأفلام التي تغري بالانحراف وارتكاب الجريمة...

كل هذه الحالات يجب على المجتمع المسلم -مهما كان صغيرًا أو فقيرًا- أن يتآزر في سبيل علاجها ورعاية أصحابها دينيًا وتربويًّا، وأخلاقيًّا، وماديًّا ونفسيًّا... وفي هذه الحالات لا بد أن تتعانق صور العلاج النفسي والروحي مع الرعاية المادية والاجتماعية، ولا بد من تهيئة المناخ الإسلامي المناسب وتيسير السبل للأعمال والنشاطات النافعة الحلال التي تمثل البديل للمناخ غير الصالح الذي كان من أسباب معاناة هؤلاء،وربما كان من عوامل التكافل الاجتماعي تيسير السبل للزواج أيضًا وللالتحاق بدروس المساجد وبدور العلم المناسبة لإمكانات هؤلاء وثقافتهم وقدراتهم الفكرية.

* * *

١- رواه البخاري في الأدب المفرد.

نظام المواريث والتكافل الاجتماعي:

بعض الذين عالجوا نظام المواريث في الإسلام كانوا خاضعين لشعارات فوضوية، تخدع العقول وتهدم العواطف، لكنها –عند التحليل العلمي– بعيدة عن الحق والصواب والرؤية الاجتماعية الشاملة التي تنظر إلى الأسرة كبناء متكامل وإلى المجتمع في النهاية كوحدة متماسكة متعاونة.

وإذا نظرنا إلى كل أسرة طبيعية، فإننا نجدها تتكون من رجل وامرأة، فإذا كان ميراث الرجل ضعف المرأة فإن كل بيت في النهاية سيتكون من ثلاثة أنصبة (٢ الذكر + ١ للأنثى) والسرّ التشريعي الحكيم وراء هذا هو الحفاظ على التكافل الاجتماعي؛ إذ يبقى الأخ (الزوج لامرأة أجنبية) مرتبطًا بإخوانه وأرحامه شاعرًا بمسؤوليته نحوهم، وتبقى الأخت (الزوجة لرجل أجنبي) شاعرة بانتماء لإخوتها وأرحامها من زاوية مسؤوليتهم نحوها تجاه ما أخذوه من فارق في الميراث يمثل ضمانًا اجتماعيًا لها عندهم في حالات موت زوجها أو ضياع مالها !!..

وهذا نموذج نقدمه لبيان روح التكافل الاجتماعي الذي يتخلل نظام المواريث في الإسلام، فلم يجعل الإسلام المواريث قواعد رياضية جافة تقطع كل الوشائج والأرحام.. ونحن نلمس هذه الروح من خلال بصرنا الحكيم في آيات المواريث نفسها، يقول الله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ

مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾[1].

وعند الفحص الدقيق لآيات المواريث نجدها مصبوغة تقيم الإسلام، الدين الموحى من قبل اللطيف الخبير الذي يرشد إلى القوانين دائما في إطار من الحب والتكافل والرحمة، وقد يجبر النواحي القانونية بأوامر أخلاقية وشرعية لا تقل قوة عن النواحي المادية، فللوالدين في الإسلام بعامة وللأمم بخاصة حقوق تسمو على كل الحقوق المادية، وكأنها تجعل الولد وما يملك لوالديه، ولم يأمر الإسلام بالذل إلا مع الوالدين: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾[2].

ومن الزاوية المادية البحتة التي يركز عليها بعضهم، ترد حالة الأم بصور ميراثها المختلف كوارثة، وحالة الإخوة لأم بصور ميراثها المختلفة، مساوية

١- النساء من ٩: ١٤.

٢- الإسراء: ٢٤.

ماديًّا للرجل، أو متفوقة عليه معنويًّا ومساوية له ماديًّا في بعض الحالات، وفي هذا الدلالة العظمى على عدل الشرع الحكيم، وعلى تقديره لعلاقة الأمومة، وعلى أن هذا الشرع الحكيم لا يجامل الرجل على حساب المرأة، وكذلك لا يجامل المرأة على حساب الرجل، ولا يحابي طبقة على حساب أخرى.. بل يعطي كل ذي حق حقه في ضوء المصالح العامة، والظروف الخاصة، والواجبات الملقاة، والحاجات الملحّة !!

* * *

التكافل الاجتماعي والأخوة الإسلامية:

إذا كان التأمين الاجتماعي أمرًا تتولاه الدولة والمؤسسات الخاصة، ويتطلب مساهمة المستفيد باشتراكات يؤديها حتى تمنح له مزايا التأمين الاجتماعي متى توافرت فيه شروط استحقاقها...، وإذا كان الضمان الاجتماعي يقصد به التزام الدولة نحو مواطنيها، وهو لا يتطلب تحصيل اشتراكات مقدمًا، وتلتزم الدولة بتقديم المساعدة للمحتاجين في الحالات الموجبة لتقديمها كمرض أو عجز أو شيخوخة، متى لم يكن لهم دخل أو مورد رزق يوفر لهم حد الكفاية [(١)].

إذا كان هذا هو مفهوم التأمين الاجتماعي والضمان الاجتماعي، فإن التكافل الاجتماعي قد حققه الإسلام بين أفراد الأمة جميعًا عبر شبكة من الالتزامات والقيم الشرعية والأخلاقية.

- وتأتي (الأخوّة الإسلامية) أساسًا تقوم عليه كل صور التكافل والتراحم بين المسلمين، وهي تجسيد لقوله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [(٢)].

١- د. محمد شوقي العنبري: الإسلام والضمان الاجتماعي، ص٣٠، ٣١، ط٣- الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢- الحجرات:١٠.

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١).

فعندما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة كانت المؤاخاة بين المسلمين من أولى الركائز التي اعتمد عليها في بنائه لمجتمع المسلمين، وقال لأصحابه من المهاجرين والأنصار « تآخوا في الله أخوين أخوين».

فكان هذا التآخي -بما انبثق عنه من ترابط وتكافل اجتماعي وإيثار نادر في تاريخ البشرية كله- كان هذا التآخي « تجربة رائدة » في تاريخ العدل الاجتماعي ضرب فيه الرسول عليه الصلاة والسلام مثلا على مرونة الإسلام وانفتاحه في الظروف المناسبة على أشد صور العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلا (٢)، وقد بلغ من تأكيد الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤاخاة أن كان ميراث الأنصاري يؤول بعد وفاته لأخيه المهاجر بدلا من ذوى رحمه من الأخوة أو الأبناء والنساء، واستمر الحال على ذلك حتى موقعة بدر التي حظي فيها المسلمون بمقادير لا بأس بها من الغنائم والأموال. فأنزل الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾(٣). فعاد التوارث سيرته الأولى (٤).

- ولا نظن مجتمعًا من هذه المجتمعات التي تتشدق بالعدالة الاجتماعية تحت شعار الاشتراكية أو غيرها تحلم بالوصول إلى شيء من هذه الصور التي صورها القرآن أصدق تصوير بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٥).

إن الأخوة بين المسلمين من أعظم المبادئ التي ارتكز عليها التكافل

١- الفتح: ٢٩.

٢- د. عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة، ص ١٥٢.

٣- الأنفال: ٧٥.

٤- د. عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة، ص ١٥٢.

٥- الحشر: ٩.

الاجتماعي في الإسلام، بيد أن هذه الأخوة التي تجسدت عمليًّا في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كأول صورة تطبيقية لها.. هذه الأخوة للأسف الشديد لم تحظ من المؤرخين بالاهتمام الكافي، مع أنها من أبرز الظواهر التي تُخْرِسُ الدعاة المزيفين للعدالة الاشتراكية في العصر الحديث، وتكشف بجلاء مدى عظمة النظرة الإسلامية لعلاج المسألة الاجتماعية.

وجدير بالتنويه هنا أن هذه الأخوة ممتدة بين المسلمين إلى يوم القيامة.

ولئن كانت قد توقفت كأساس للتوارث، فإنها لم تتوقف كمبدأ إنساني اجتماعي أساسي في حياة المجتمع، لأن محمدًا عليه الصلاة والسلام لم يقررها لمجرد إيجاد وسيلة لمعاونة المهاجرين المحتاجين، وإنما قررها ليؤكد للجماعة الإسلامية مبدأ الأخوة في العقيدة والهدف والمثل الأعلى بين أهل الجماعة الواحدة.

ولو أن كل مجموعة حرصت على تطبيق مبدأ المؤاخاة وربط أفرادها اثنين اثنين بروابط أخوة قلبية وإنسانية مثالية، لكان لذلك أثره البعيد في تطور العلاقات الإنسانية في داخل المجتمع، ولكانت هذه الروابط الروحية بين الناس قد أصبحت عوامل قوة دائمة الثبات والسير إلى الأمام [1] فضلا عن حفظها لكيانه كأقوى ما يكون ترابطًا وتعاونًا وحبًّا.. ولا سيما في بلاد الغربة، حيث يكون المسلمون أقلية.

إن الأخوة الإسلامية -بتركيز شديد- هي التطبيق العقدي والشرعي والأخلاقي للتكافل الاجتماعي الإسلامي العام، وهي فرض كفاية على الجميع، وفرض عين على الأقربين مكانًا ورحمًا وصلة بالمحتاجين... يقول صاحب كشاف القناع: « دفع الضرر عن المسلمين من فروض الكفاية، وهي ما قصد حصولها من غير شخص معين، فإن لم يوجد إلا واحد، تعين كستر العاري، وإشباع الجائع، وفك الأسرى على القادرين من المسلمين، إن عجز

١- د. حسن مؤنس، عالم الإسلام، ص١٣٩، دار المعارف – مصر. (بتصرف يسير)

بيت المال عن ذلك، أو تعذر الأخذ منه »[١].

وعلى أساس هذه الأخوة الإسلامية التي تتأرجح بين فرض الكفاية والعين انطلق المجتمع الإسلامي وتجاوز كثيرًا من العقبات المعنوية والمادية ! وبدون عودة هذه الأخوة – على النحو الإيجابي الفاعل الذي يتجاوز الحواجز العرقية والوطنية والاجتماعية – لن تقوم للمسلمين قائمة، ولاسيما حين يكونون أقليات. سواء كانوا أقلية كبيرة مثل الأقلية الإسلامية في الهند، أو أقليات صغيرة كتلك الأقليات المنتشرة في أوروبا وأمريكا وإفريقيا وغيرها... ففي كل الحالات لن تستطيع الأقليات الإسلامية أن تواجه الضغوط الاجتماعية والثقافية المضادة إلا بالمناخ الذي تحققه الأخوة الإسلامية التي وفرت شروط الانطلاق والسيادة للمجتمع الإسلامي الأول وسط ظروف أعتى من الظروف التي تحيط بالأقليات الإسلامية اليوم... وما زالت قادرة على قيادة المسلمين اليوم...

وروح الإسلام روح واضحة قوية لا يملك الإنسان نفسه من التأثر بها والاستغراق في جوها... هذه الروح هي التي ترسم الأفق الأعلى الذي يتطلب الإسلام من معتنقيه أن يتطلعوا إليه، وأن يحاولوا بلوغه، ليس بتنفيذ الفرائض والتكاليف فحسب، بل بالتطوع الذاتي لما هو فوق الفرائض والتكاليف... وهذا الأفق عسير المرتقى، وأعسر منه الثبات عليه؛ لأن نوازع الحياة البشرية، وضغط الضرورات الإنسانية، لا تسمح للأكثرين من الناس أن يرتقوا لهذا الأفق العالي، ولا أن يصبروا عليه طويلا، إن ارتقوا إليه في فورة من فورات الشوق والتطلع، فلهذا الأفق تكاليفه العسيرة، وهى تكاليف في النفس والمال وفي الشعور والسلوك[٢].

١- كشاف القناع، ج ١ ص٦٥١ – وانظر د. محمد الصادق عفيفي: المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان، ص ٩١ سلسلة دعوة الحق: مكة المكرمة ١٤٠٧هـ.

٢- سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص ١٦٣، دار الشروق القاهرة ١٣٩٥هـ.. بتصرف يسير.

ولقد كان لتلك الروح التي أشرنا إليها أثر في الواقع الإسلامي التاريخي، فاستحال الإسلام – وهو عقيدة وفكر – إلى شخصيات ووقائع ولم يعد نظريات مجردة، ولا مجموعة إرشادات ومواعظ، ولا مثلا وأخيلة، إنما أضحى نماذج إنسانية تعيش، ووقائع عملية تتحقق، وسلوكًا وتصرفات تشاهد بالعين، وتسمع بالأذن، وتترك أثرها في واقع الحياة، وفي أطوار التاريخ، فكأنما كان روحًا يتلبس بهذه الشخوص فيحولها، ويصوغها صياغة جديدة وينشئها نشأة أخرى، وهذه التي نسميها روح الإسلام، هي في رأينا مزيج من الحب والرحمة يعالج به المسلم القضايا التشريعية، وهذا المزيج يجعل المسلم يحاول السمو إلى أفضل الصور عند تطبيقه للشريعة، وهذا المزيج يجعل المسلم – أيضا – يجاهد في سبيل الوصول إلى ما يمكن أن نسميه الأفق المثالي للتطبيق...

ولقد تكون هذا المزيج أو هذه الروح بتأثير القيم القرآنية العامة التي تحث المسلمين على الحب والإيثار والتضحية واللين، والتي تجسدت في أقوال الرسول وأفعاله أيضا، ورآها المسلمون قرآنًا يمشي على الأرض، فحاولوا أن يقتدوا بها؛ لأن الوحي أمرهم أن يكون لهم في رسول الله أسوة حسنة...

يقول الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ

١- النحل: ٨٩.

٢- الإسراء: ٨٢.

﴿ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[1].

ويقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾[2].

ويقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[3].

لقد تميز الإسلام بالمزج الشديد بين العدل والحب والرحمة، فإذا كانت الزكاة «عدلا» فإن المجتمع لا يستغني عن الحب والرحمة، فليس بالزكاة وحدها، مهما بلغ سموها، تقوم الحياة المادية بل في الأموال حقوق غير الزكاة. وليس بالحق أو العدل وحده تقوم الحياة الإنسانية، بل لا بد معهما من الحب والرحمة اللذين يرتفع بهما الإنسان فوق القوانين، ليقترب من روح القوانين، وفوق العدل ليكون إنسانًا ربانيًا رحيمًا جديرًا برحمة الله، وجديرًا بأن يكون تلميذًا وتابعًا لرسول الله ﷺ الذي قال الله له: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾[4].

وقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[5].

وقد نجح الصحابة والتابعون وكثيرون في التاريخ الإسلامي في أن يكونوا نماذج حية لهذه الروح الإسلامية العالمية..

فهذا أبو بكر رضي الله عنه كان له يوم أسلم أربعون ألف درهم مدَّخرة من ربح تجارته، وقد ربح الكثير من التجارة بعد إسلامه، فلما هاجر إلى المدينة مع صاحبه ﷺ لم يكن قد بقي له من كل مدَّخرة سوى خمسة آلاف درهم، لقد أنفق ماله المدّخر في افتداء الضعفاء من الموالي المسلمين الذين كانوا يذوقون

١- الأعراف: ١٥٧.

٢- النساء: ٢٨.

٣- البقرة: ١٨٥.

٤- آل عمران: ١٥٩.

٥- التوبة: ١٢٨.

العذاب ألوانا من سادتهم الكفار، كما أنفقه في برّ الفقراء والمعوزين.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه -وإنه لرجل فقير- يصيب أرضا بخيبر فيجئ رسول الله ﷺ فيقول: لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمر به ؟ فيجيبه الرسول ﷺ: « إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها »، فيجعلها عمر وقفًا على الفقراء وأولي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله والضعيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم صديقًا غير متمول فيها. ويخرج بذلك من أعز ماله استجابة لقول الله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [١].

وهذا عثمان رضي الله عنه قبل الخلافة ترد عير له من الشام في وقت نزل فيه البرح بالمسلمين من الجدب، فإذا هي ألف بعير موسوقة برًا وزيتًا وزبيبًا، فيجيئه التجار يقولون: بعنا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم ضرورة الناس.. فيقول: حبًّا وكرامة كم تربحوني على شرائي؟ فيجيبون: الدرهم درهمين، فيقول: حبا وكرامة كم تربحوني على شرائي؟ فيجيبون: الدرهم درهمين، فيقول: أعطيت أكثر من هذا، فيقولون: يا أبا عمرو، ما بقي في المدينة تجار غيرنا، وما سبقنا إليك أحد، فمن الذي أعطاك ؟ فيجيب: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة ؟ فيقولون: لا فيشهد الله على أن يكون هذه العير وما حملت صدقة لله على المساكين والفقراء من المسلمين.

وهذا علي رضي الله عنه وأهل بيته يتصدقون بثلاثة أرغفة من سويق كانت لهم، على مسكين ويتيم وأسير، ثم يبيتون على الطوى، وقد شبع المسكين واليتيم والأسير [٢].

ولم تكن الرحمة الإسلامية للمسلمين فقط، فالمبادئ لا تتجزأ، والمنهج الإسلامي يعتمد العدل المطلق والرحمة المطلقة، اللهم إلا إذا فرض عليه

١- آل عمران: ٩٢.

٢- العدالة الاجتماعية في الإسلام ص ١٩٧، ١٩٨.

أن يكون قويًّا شديدًا كما هو الحال في حالات الحروب التي اخترعت لها البشرية صورًا من الظلم الاجتماعي والإبادة الجماعية التي لا تعرف الرحمة ولا العدل.

أما الإسلام فحتى في هذه الحالة الاستثنائية التي توجب الأخذ بكل ألوان الشدة وإلا فقد الإنسان دينه الذي يدافع عنه وأرضه التي يدافع عنها وحياته الشخصية.. لكن الإسلام حتى في هذه الحالة –بكل ملابساتها– التزم العدل والرحمة، فاستثنى غير المحاربين، ووضع آدابا للحرب، ونهى عن الغدر والاغتيال والتعذيب، ونهى عن قتل المرأة والصبي والشيخ الهرم والعجزة والمنقطعين للعبادة –مهما كان دينهم– والمنقطعين للعلم والطبقات المدنية غير المحاربة، كما أنه لم يسمح بقتل الأطباء والممرضين.. وقد أوصى رسول الله ﷺ المجاهدين بقوله: «لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»، ويقول عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد: « لا تقتل ذرية ولا عسيفا – أي عاملا –» وأوصى أبو بكر رضي الله عنه أسامة بن زيد رضي الله عنه حينما بعثه إلى الروم بقوله: لا تخونوا، ولا تقطعوا نخلا ولا تحرقوه ولاتقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا بقرة ولا شاة ولا بعيرًا، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له [١] !!.

فالرحمة نسيج التعاليم الإسلامية كلها، لكنها الرحمة الإيجابية وليست الرحمة العاجزة السلبية، كما أنه الحب الحقيقي الذي يراه الناس ويعملون به دينًا وأخلاقًا، وليس الحب النظري الذي لا رصيد له في الواقع والذي يلوك كلمة (المحبة!!) وهو يتآمر على العالم، ويكيل بكيلين ويعمل لذاته، ويفرض على الضعفاء الاتفاقات التي تبقي على فقرهم وضعفهم، وتزيد الغني القوي شراسة وترفًا.

* * *

١– انظر عبد الله غوشه: الدولة الاسلامية دولة إنسانية، ص ٧٨، طبع عمان ١٣٩١ هـ.

التكافل الاجتماعي وأساسيات الحياة:

كفل الإسلام بتعاليمه لكل الناس الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي -مسلمين كانوا أو غير مسلمين- أساسيات الحياة.. وتعاليم الإسلام ذات طابع إنساني عام يتصل بتقدير القيمة الإنسانية نفسها.. بل وحتى الحيوانات والطيور حثت تعاليم الإسلام على الرحمة بها وتوفير حقوق الحياة لها والإحسان إليها، فكيف بالإنسان؟!!

ومن هذه الأساسيات التي ضمنها الإسلام:

١- **أمن السرب** [١]..ويتمثل هذا اللون في حماية: الدم والعرض والمال، قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع:« ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا...» ومن ثم فقد ظلل الإسلام بحمايته ورعايته هذه القضايا الثلاث وأمر بالضرب على أيدي المعتدين، وفرض عليهم عقوبات رادعة وأقام حدودًا لأي عدوان، أو ارتكاب جريمة، من سفك دم، أو قتل نفس حرم الله قتلها إلا بالحق، أو سرقة أو اغتصاب، أو قطع طريق أو زنًا بامرأة...وليست الشدة «المزعومة» في الحدود الإسلامية إلا تقديرًا من الإسلام لحقوق الحياة الأساسية، وضربًا على أيدي العابثين بها والمعتدين عليها.

٢- **أمن الصحة:** ويتمثل في الحفاظ على صحة المجتمع باعتبارها وحدة واحدة لا تتجزأ قال عليه الصلاة والسلام: «لا يوردن ممرض على مصح» [٢]. وقال: « إذا سمعتم الطاعون بأرض قوم فلا تدخلوها، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا منها » [٣] وهذا هو الحجر الصحي

١- هذا المصطلح مقتبس من قوله عليه السلام: «من بات آمنا في سربه عنده قوت يومه...إلخ».

٢- رواه البخاري ومسلم وأحمد ابن ماجه.

٣- رواه أحمد.

بمعناه الصحيح.. ومن مميزات الإسلام أن أول أبواب الفقه فيه (باب الطهارة) بينما كان بعض رجال الدين اللاهوتيين في العصور الوسطى يتباهون بأن المياه لم تمس أجسادهم لسنوات طويلة!!

٣- **أمن القوت:** إن واجب الدولة الإسلامية ضمان القوت للمجتمع الإسلامي، فالله سبحانه يخاطب المؤمن بفعل الأمر: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [1].

وتوفير القوت للمسلم ولغيره – بل للحيوانات – فرض من الفروض الإسلامية، يؤخذ من القادرين بقوة الشريعة وبصلاحيات الحاكم، ففي المال حقوق غير الزكاة تؤخذ لتسهم في حد كفاية المجتمع.

٤- **أمن التعليم:** فمن واجب الدولة الإسلامية أن تعمل على إشاعة التعليم بين أفراد طبقات المجتمع الإسلامي.. وقد جاءت أول كلمة في القرآن فعل أمر بالقراءة وجاءت آثار كثيرة تأمر بطلب العلم وتجعله فريضة.. وعلى المجتمع المسلم تطبيق هذه الأوامر من خلال آليات ونظم مختلفة تناسب كل العصور وتستفيد من إنجازات التطور العلمي.

٥- **أمن الكوارث** [2]: ويقصد به مواجهة الكوارث العامة التي قد تقع في المجتمع كالزلازل والفيضانات والأمراض الفتاكة، سواء باتخاذ التدابير لحماية الناس منها، أم بالوقوف مع الناس بما يصلحهم عند وقوعها..!!

٦- **أمن الدين:** فالحفاظ على الدين هدف وواجب ورسالة.. بل هو خصوصية الأمة وقضيتها وجوهر عملها.. وبغيره تفقد رسالتها إلى العالم، وتكون معرضة للذوبان في غيرها، وتعيش في ضنك وفتن وهزائم، كما هو واقعها..عندما تخلى كثير منها عن منهج الإسلام

١- التوبة: ١٠٣.

٢- د. محمد الصادق عفيفي: المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان، ص ٩٧ وما بعدها.

في السياسة والاقتصاد والاجتماع في العصر الحديث، بعد نجاح الغزو الفكري والحضاري لها. فالحفاظ على الدين داخل المجتمعات الإسلامية في كل صغيرة أو كبيرة أساس من أسس البقاء، كما أن نشره بين الناس واجب إسلامي عام.

ومع تطور أساليب الحياة، وتعاظم التحديات، قد يصبح من أساسيات الحياة امتلاك الأمة والأفراد كثيرًا من الأمور التي يحمون بها وجودهم وإلا تعرضوا للفناء وكانوا في حكم الذين لم يأخذوا حذرهم، ولم يعدّوا ما يستطيعون من قوة يرهبون بها أعداء الله وأعداءهم!!

والأمر نفسه قد يكون في التعامل مع الكمبيوتر والإنترنت ووسائل الإعلام التي أصبحت أدوات للحفاظ على الوجود والحياة في عصرنا، ولمواجهة القوة التي لا ترحم الضعفاء، لأنها – أصلا – لا تعرف الرحمة، حتى وإن كررت في كل يوم ألف مرة عبارات الرحمة والحبّ والشفقة!!

القسمات الحضارية للتكافل الاجتماعي الإسلامي:

ليس التكافل الاجتماعي مجرد تنظيمات اختيارية يقيمها المجتمع المسلم، كما أنه ليس نافلة تطوعية يفعلها المسلم فيثاب، أو يتركها فلا ثواب ولا عقاب.. كلا، فليس الأمر كذلك في التكافل الاجتماعي.. وقد صور الرسول ﷺ المجتمع المسلم في شكل سفينة ليس من حق أحد أن يخرقها مهما كان موقعه؛ لأن في ذلك إغراقًا للجميع. وعندما لا يتحقق التكافل الاجتماعي فيختفي العدل، وينعدم التوازن، ويظهر الترف في جانب، والفقر الشديد في جانب آخر، تكون النتيجة انتشار الأحقاد، وظهور المذاهب الهدامة كالشيوعية والاشتراكية، وتتعرض سفينة المجتمع للهلاك، وتقوم الثورات الحمقاء التي لا تبقي ولا تذر!!

وإذا كان الله تعالى يخاطبنا بقوله: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[1]، ويأمرنا أيضا بمقاومة الترف الذي يعده نذير الهلاك: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[2].

إذا كان الله يقول ذلك، فإنما يقوله ليلفت أنظارنا إلى أهمية إزالة التناقض وعوامل الصراع في المجتمع، فالمترفون الذين لا يعطون المستضعفين حقوقهم يتحملون الوزر الأكبر في تأجيج عوامل الصراع، ذلك لأن الترف ممارسة مدمرة سواء للجماعة التي تسكت عليها وتغض عنها الطرف، وتغلو في انهزاميتها فتتملق وتتقرب وتداهن، أو للمترفين أنفسهم الذين يعمي الثراء الفاحش، وما ينبثق عنه من ممارسة مرضية متضخمة مبالغ فيها، بصائرهم، ويطمس على أرواحهم ويسحق كل إحساس أخلاقي أصيل في نفوسهم، ويحجب عنهم – وهذا هو الأهم والأخطر – كل رؤية حقيقية لدور الإنسان في الدنيا، وموقفه في الكون، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالم الحضور والغياب، والأرض والسماء [3].

- لكن هل المترفون وحدهم هم الذين يتحملون وزر إغراق سفينة المجتمع؟

كلاًّ، إنّ الفقراء والمستضعفين يمكن أن يكونوا شركاء لهم في الوزر فربما استمرأ هؤلاء المستضعفون الفقر ورضوا به وعاشوا ينتظرون معونة الدولة أو معونة الأمة، ناسين أن الإسلام ينهى عن التسوّل والكسل والعجز وترك التكسب، ويأمر المسلم أن يستعيذ بالله من العجز والكسل والفقر، وفي الوقت نفسه يأمر بالعمل ويجعله عبادة، يكرّم العمال، ويعتبر كسب الرجل من يده أفضل المكاسب، يقول عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحدٌ طعامًا

١- البقرة: ١٩٥.

٢- الإسراء: ١٦.

٣- د. عماد الدين خليل،العدل الاجتماعي، ص ٤٠، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت.

قطّ خيرًا له من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده»[1].

وهكذا، فبينما يقاوم الإسلام الترف والمترفين، ويحملهم مسؤولية كبيرة في إغراق السفينة، يتجه أيضا إلى الفقراء والمستضعفين القادرين على العمل، يحثهم على عدم الاستسلام لواقعهم، والأخذ بأسباب الغنى والقوة... عن طريق العمل..

وفي الوقت نفسه يضع ضوابط لحركة الجميع في الحياة، بعيدًا عن الأثرة والكبر والفساد والانحرافات.. بل يأمرهم بأن يلتزموا بوسطية الإسلام وعدله في كل أمورهم، لأنهم شرائح من الأمة الوسط، ولأنهم ملزمون بالمنهج الوسط... وعندما يعرض القرآن لقصة (قارون)، وهو النموذج الذي يضعه الإسلام في القمة من الترف الذي يستحق أشد أنواع العقاب، يورد القرآن في ثنايا عرضه للقصة ونتائجها بعض القواعد التي يتجه بها إلى الجميع استفادةً من هذا الدرس البليغ.. يقول تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[2].

وفي الآية نلمح الوسطية والتوازنية والعدل بين الدنيا والآخرة، وبين المترفين والفقراء، كما نلمح نهي القرآن عن استغلال المال للفساد في الأرض.. وتنتهي بنا (قصة قارون) عند دروس أخرى تقدمها لنا الآيتان التاليتان:

﴿ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا

١- رواه البخاري وأحمد وابن ماجه.

٢- القصص: ٧٧.

﴿ فَسَادًاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [1].

فقد أصبح المنبهرون بقارون مؤمنين بفضل الله عليهم، حين لم يجعلهم مثل قارون مترفين، وإلا لكان مصيرهم الخسف..

وقد آمنوا بأن بسط الرزق بيد الله وأنه يفعله لحكمة، وهو ليس خيرًا دائمًا.. وتقدم الآية الثانية قانونًا ربانيًّا.. بأن الدار الآخرة ليست لطلاب الاستعلاء والإفساد.. بل للمتقين!!

ومن جانب آخر يعالج القرآن قضايا توفير الحاجات البيولوجية والغذائية للناس عن طريق الحث على إنتاجها وتنميتها بالطرق الحلال والابتعاد بها عن الطريق الحرام التي تودي بأصحابها، ففي حوالي مائة موضع في القرآن الكريم ترد كلمة (الأكل) بتصريفاتها المختلفة، وفي حوالي خمسين موضعًا ترد كلمة (طعام) بتصريفاتها المختلفة، وفي حوالي ثلاثين موضعًا ترد كلمة (شراب) بتصريفاتها المختلفة، وفي حوالي مائة وعشرين موضعًا ترد كلمة (الرزق) بتصريفاتها المختلفة[2]، وفي أكثر من ثلاثين موضعًا من القرآن الكريم ترد الدعوة إلى إطعام الفقراء والمساكين وسدّ حاجاتهم الأساسية، وفي أكثر من أربعين موضعًا يرد التأكيد على فريضة الزكاة والصدقات والثناء على دافعيها والتنديد بمانعيها. وفي أكثر من سبعين موضعًا يتردد ذكر الإنفاق وتسلط عليه الأضواء من كافة زواياه [3]...

وفي مجال التكافل الاجتماعي يدعو القرآن المسلمين إلى أن ينظروا إليه باعتباره قضية أساسية، حتى لو أدى الأمر إلى الجهاد إنقاذًا للمستضعفين من أيدي جلّاديهم وظالميهم.. يقول الله تعالى: ﴿ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

١- القصص: ٨٢، ٨٣.

٢- د. عماد الدين خليل، العدل الاجتماعي، ص٦٢.

٣- المرجع السابق ص ٥٣.

﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [1].

ويقدم الإسلام عددًا من المبادئ ذات الأبعاد الدينية والحضارية من أجل أن تتوافر وسائل أو آليات تكفل تحقيق التوازن الاجتماعي، كما تكفل تحطيم الثراء الفاحش الذي يؤدي إلى الخلل الاجتماعي..

- إن الإسلام يجعل المال كله مال الله، ويخاطب المسلمين وهو يأمرهم بالإنفاق قائلا: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [2]. وهذا أول المبادئ.
- وهو يجعل المال وسيلة لا غاية، أما الغاية فهي تعمير الأرض وعبادة الله بالمعنى الشامل للعبادة.. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [3].
- وهو يحرم الربا والمكاسب غير المشروعة، وسائر صور الاحتكار والغش وأكل الأموال بالباطل، والطغيان في حالة الثراء، كما توعَّد كل أصحاب الأموال بأنهم سيسألهم الله عن أموالهم من أين اكتسبوها، وفيما أنفقوها.
- ونظام المواريث يقوم بتفتيت الثروات من حين لآخر ضمانا للعدل في التوزيع ودرءًا لأن تتجمع الثروات في أيد محدودة..
- ومن المبادئ أيضًا تحريم اكتناز الأموال وعدم تشغيلها، وقد توعد الله هؤلاء بعذاب أليم.
- ومن المبادئ أيضا محاسبة كل الناس عن مصادر ثرواتهم عند اللزوم وفق قانون: من أين لك هذا؟ وقد كان الخلفاء يطبقونه مع ولاتهم.
- ومن المبادئ أيضًا الحثّ على الإنفاق العام في سبيل الله والتحذير

١- النساء: ٧٤.

٢- النور: ٣٣.

٣- الذاريات: ٥٦.

من البخل وعواقبه.. قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[2].

- وبالإضافة إلى هذه المبادئ، أوجب الإسلام بعض الفروض وسنَّ بعض النوافل من أجل أن تكون روافد خير لتحقيق التكافل الاجتماعي، ومنها، وعلى رأسها، فريضة الزكاة، وصدقة الفطر، والكفارات، والأضاحي والنذور، والوقف، وواجب الضيافة، والوصيّة، وحق الماعون، والهدايا أو الهبات في المناسبات المختلفة...
- وقد أحاط الإسلام كل ذلك بسياج من التربية النفسية والوجدانية، ووَصَلها بحبّ الله وإيثار الآخرة على الدنيا، وَوَعَدَ بالجزاء المضاعف عند خلوص النوايا وتحرِّي الحلال.
- وكان من نتائج هذه الآليات أن ينطلق المجتمع الإسلامي في التاريخ مثل سفينة يشعر جميع ركابها بمسؤوليتهم عنها، إلا الشواذ، مقدمين مجتمعًا يقوم على التراحم والأخوة، والشعور بالهم الإسلامي الواحد وبالجسد الإسلامي الواحد الذي يتأثر بحالة كل عضو فيه، ويبرز التعاطف معه، ويُقدَّم له، مهما تناءت الديار، العون والمساعدة.
- إنه مجتمع يقوم في تكافله على العقيدة والشريعة والأخلاق.. ويتجاوز نطاق الماديات، لكنّه لا يتجاهلها.. بل إنه يمزج بين الماديات والمعنويات،

١- محمد: ٣٨.

٢- آل عمران: ١٨٠.

كما يهتم بالنيات والأهـداف، وبالفرد والمجتمع، وبالرجل والمـرأة، وبالغني والفقير، والقوي والضعيف!!.

- إنه ليس مجتمع تناقض وصراع، بل هو مجتمع تكافل وتراحم، ذلك لأنه مجتمع لا يفصل بين ما لله وما لقيصر، فكل شيء فيه لله، وكل الأعمال يمكن أن تكون دينا وعبادة.

- إنه مجتمع تمتزج فيه الدنيا بالدين، والعلم بالعمل، والوحي بالعقل..

- إنه مجتمع المعادلة الحضارية السليمة، الذي يضع كل إنجازات أوروبا وأمريكا والحضارة المعاصرة في بوتقة الإيمان.

- ولن تستعيد البشرية إنسانيتها وسعادتها إلا إذا عاد هذا المجتمع لمكانته ودوره، ورأتْ فيه البشرية النموذج الذي تحتذيه، والذي ينقذها من فلسفة الصراع والتناقض، وطغيان المادة، وإهمال الروح!!

- ويـوم يتحقق هـذا يتحقق التكافل الإنساني العـام، ويتحقق العدل للجميع.. بكيل واحـد.. حتى لو اختلفت الأديـان والمصالح.. وهذا ما ينبغي أن يُجاهد في سبيله المسلمون.. والمنصفون من طلاب الحق والعدل والخير في كل زمان ومكان.

***



الفصل الثالث

الوحي والعقل
جناحا الحضارة الإسلامية

العقل وسيلة اكتشاف الدنيا وفقه الدين:

يجب الانطلاق من مقولتين نراهما صحيحتين كل الصحة...

- **المقولة الأولى:** إنه ليس بالدين وحده يحيا الناس.

- **والمقولة الثانية:** إنه ليس بالعقل وحده يحيا الناس. فالدين لن يعمل في الحياة عمله إلا بواسطة أصحاب عقول.. والعقل لا يستطيع وحده أن يبني حياة إنسانية دون معالم الدين، ودون هدى الوحي، وغذاء الروح والضمير، والمنظومة القيمية والأخلاقية، وغير ذلك مما ينبع من الدين، ولا يستطيع غير الدين أن يقدّمه.

– ولو كان الدين وحده يستقيم بدون العقل لكلف الذين لا عقول لهم، ولكن كل الأديان تربط التكاليف الدينية بالعقل، وتعفي منها الذين لا عقول لهم، صغارًا كانوا أو سفهاء!! وكذلك لو كان العقل قادرًا على فك ألغاز الوجود وقيادة خطوات الإنسان، من غير الخدمات العظيمة التي يقدمها له الدين، ومن غير الحراسة الكبيرة التي يحميه بها الدين لما كانت هناك حاجة بأن يرسل اللّه الرسل إلى الأرض، وأن ينزل عليهم الكتب التي تحمي العقل من نفسه ومن الأهواء والغرائز وتعبّد له الطرق وتمهده، وتضع له شارات الحق والباطل، والخير والنور، والصعود والهبوط، والسعادة والشقاء.

وهؤلاء المرسلون لم يطلبوا أجرًا، ولم يبنوا من خلال رسالاتهم قصورًا شاهقة، بل كانوا أقرب إلى الفقراء والمستضعفين منهم إلى الأغنياء والمترفين، وقد عانى أكثرهم وعذّبوا وقُتل بعضهم، ومع ذلك فقد رفضوا جميعًا أن يبيعوا رسالتهم أو أن يخونوا الأمانة التي كلفهم اللّه بها، بل صبروا على ما كذّبوا حتى أتاهم نصر اللّه، وانتشرت كلمة اللّه.. ولو كان الأمر يقوم بالعقل وحده، لما كان هناك داع لآلاف الرسل الذين أرسلهم اللّه، ولما كان هناك داعٍ لصحف إبراهيم ولاً زبور داوود، ولا لتوراة موسى،

ولا للإنجيل الذي نزل على عيسى.. ولا للقرآن الذي نزل على محمد ﷺ.

- ومن الرائع أن هؤلاء المرسلين بالكتب التي نزلت عليهم ما كبَّلوا العقل ولا قيدوه، بل أرشدوه ووجهوه، وأخذوا بيده إلى الطريق الذي يضمن العافية والسلامة والخير الدائم وإحقاق الحق وإبطال الباطل، واحترام حقوق الفرد صاحب العقل الواحد، والآخرين من أصحاب العقول الذين يعيشون معه، بل إن الأديان في حقيقتها جعلت عمل العقل في اكتشاف آلاء الله وفي تسخير قوانين الله في الكون عبادةً من العبادات، فبدلا من أن يكون العلم للعلم، والفن للفن، يكون العلم والفن لخدمة الإنسان ولتحقيق الخير، وتطبيق ما ورد في الكتب السماوية.

- ولا تؤاخَذُ الأديان بانحرافات المنحرفين، وإلا لسقطت كل مبادئ الدنْيا، وكل مذاهبها ونظمها، كذلك لا تؤاخذ الأديان بالانحرافات التي أسقطها عليها المنحرفون سواء نجحوا في الإسقاط على مصادرها أو نجحوا في تأويل تعاليمها والانحراف بها عن غايتها، فالله ورسله أبرياء من هؤلاء المحرفين للكلم عن مواضعه، كما أن الله ورسله أبرياء من الكافرين بالدين كله وبالوحي كله، الذين يرون أن الله لم يرسل رسلا ولم ينزل كتبا، وأنه يمكن بالعقل وحده أن يعيش الإنسان.

ومنذ خلق الله آدم، والدين والعلم معًا يتعانقان ويتكاملان، ويساعد أحدهما الآخر.. وكما كان نوح عليه السلام (الأب الثاني للبشرية) نبيًّا كان كذلك صانع أشهر سفينة في التاريخ.. وكما كان داود نبيًّا كان أول من صنع من الحديد أقمصة ودروعًا، وكان ابنه النبي سليمان عليهما السلام أول من سخرت له الرياح تحمله وتحمل جيوشه، وسخرت له الشياطين تغوص في أعماق البحار..

وجاء الرسول محمد ﷺ وأنزل الله عليه كتابًا، جاءت أول كلمة فيه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

إنها رحلة الدين والعلم معا... فلْنحاول استكشاف أبرز معالم هذه الرحلة الرائعة!!

معًا على الطريق منذ البداية:

منذ ظهر الإنسان على وجه الكون، خليفة في الأرض، وثمة مصباحان منحتهما له العناية الإلهية، الوحي «الدين» والعقل «العلم»، وبهما معًا انطلق من الجنة ليسير رحلة هذا الكوكب الأرضي.

فالدين بدأ مع آدم أبي البشرية – والعلم بدأ معه أيضًا – كما تُجمِع على ذلك كل الكتب المقدسة التي هي المصدر الوحيد للتاريخ لهذه الفترة المبكرة جدًا من حياة البشرية، وإنه لمن باب العقوق والغرور أيضا أن يضع بعض الناس تعريفات للعلم، تجعله قاصرًا على عصر بعينه، بل تجعله – كما يقول ج برونوفسكي: «من ابتداع الأعوام الثلاثمائة الأخيرة، حوالي ١٦٦٠م» حينما نفضت أوروبا عنها ذلك الكابوس الطويل من الحروب الدينية واستقرت لها الحياة على التجارة والصناعة [(١)].

وفي تعميم شديد تذهب رواية أخرى إلى أن العلم ظاهرة متأخرة في حياة البشرية.. وأن البشرية عاشت قبل ذلك عشرات الألوف من السنين دون أن يتكشف نشاطها عن تلك الظاهرة التي نطلق عليها: اسم العلم [(٢)].

إن هذه الجرأة في الحكم الظالم على مراحل تاريخية طويلة وحضارات مندثرة، هي بذاتها ليست من العلم في شيء، بل هي غرور عصري محدود الرؤية، والأليق بمنهج العلم أن لا يكذب ما لا يعرف وأن يتواضع، فيضع نفسه – في حركة التاريخ – باعتباره امتدادًا لمراحل سابقة، وليس نبتة مقطوعة الجذور، وما علم العصر الحديث في رأينا إلا حلقة في سلسلة طويلة بدأت مع بداية البشرية ولن تنتهي إلا بنهايتها.

١- برونوفسكي: العلم والبداهة. نشر دار النهضة العربية بمصر.

٢- انظر د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، ص ٥٧، نشر الكويت.

إن الدين والعلم قد اصطحبا الإنسان منذ أول مشكلة أرضية فرضت نفسها عليه، أي منذ رأى مشرق الشمس ومغربها يتكرران كل يوم، ومنذ رأى النجوم ولاحظ ثبات بعضها وحركة بعضها الآخر، ومنذ واجه القوى الطبيعية التي هددت وجوده [1].

فحاول أن يتلمس لكل ذلك تفسيرًا وحلا، فواجه الأمر بجانب ديني وجانب علمي، وأخفق هنا تارة ونجح هناك تارة أخرى.. لكنه كان يتحرك بالمصباحين معًا، ولم توجد حقبة في التاريخ خلت فيها الأرض من الدين، أو خلت من العلم، حتى وإن اعتورهما الضعف في بعض فترات المسيرة البشرية المتعرجة الطويلة.

ولعل تعريف الدين وتحديد مفهوم للعلم مما يساعد على إبراز هذه الحقيقة.

* * *

ما الدين وما العلم ؟

تنطلق تعريفات الدين والعلم من التصور السابق لرسالة كل منهما في الحياة وطبيعة هذه الرسالة وحجمها، وبالتالي فلنا أن نتوقع تعريفات لهما بمقدار هذه التصورات.

يرى «شلير ماخر» أن الدين مجرد شعور بالاعتماد على المطلق، ويرى «هافلوك أليس» أنه أيضًا مجرد إحساس مباشر بالاتحاد مع العالم، أي ذوبان الفردية في الكونية، بينما يرى «موراي: أنه طريقنا للاتصال بقوى العالم العظمى، أما «شبنجلر» فيصفه بأنه «الميتافيزيقا التي نعيشها ونجربها، أي ما لا يمكن أن نفكر فيه كيقين، والأعلى من الطبيعة كواقع، والحياة كوجود في عالم ليس واقعًا ولكنه صادق» [2].

١- انظر دكتور محمد حسين هيكل: الإيمان والعلم والفلسفة، طبع مصر، ص: ١٨، ١٩.

٢- انظر: ول ديورانت: مباهج الفلسفة ١٩٨٢، طبع القاهرة.

وهو تعريف أكثر امتدادًا كما نرى، ولكنه لا يصل إلى التعريف الإسلامي الذي يرى في الدين انقيادًا لله وفق قوانينه الكونية بالأسلوب الذي يشرعه هو، سواء على مستوى العبادات الفردية أو المعاملات الجماعية...

أما العلم: فهو في رأي بعضهم مجرد العلم الوضعي القائم على التجربة، وهذا تعريف مطاط يتغير بتغير الاهتمامات، ففي القرن التاسع عشر كان الاهتمام مركزًا على العلوم الجيولوجية، أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر فكان الاهتمام مركزًا على علم الفلك [١]، وفي القرن العشرين أصبح العلم في مخيلة البعض وكأنه مجرد «التكنولوجيا» الحديثة وغزو الفضاء.

لكن هذه التعريفات لا تمثل وجهة نظر أكثر العلماء الذين يحددون للعلم دائرة أكثر شمولا فيرون أن سلسلة من تصورات ذهنية «المعاني المجردة» ومشروعات تصورية «افتراضات» مترابطة متواصلة هي نتاج حدثين: الملاحظة والتجريب، بحيث تلد الفكرة فكرة، وتؤدي التجربة إلى تجربة بصورة متطورة ومستمرة [٢].

والحق أن العلم منهج للتفكير في منطقة قابلة للبحث « الطبيعة » بوسائط معينة، بغية استخلاص «القوانين الكونية» وما يتبعها من جزيئات تفسر هذا الكون وتسخره للإرادة الإنسانية، إنه ليس تفكيرًا لفئة خاصة، بل نوع من التفكير المنظم الواعي بأوليات الأشياء، والمتسم بالنزاهة والشمولية والدقة، والرغبة الجادة في الوصول إلى الحقيقة المجردة عن طريق العقل الذي يمثل ملكة تركيب عليا قادرة على تجاوز الجزئي إلى الكلي، وطرح الأفكار المضادة، وصياغة القوانين العامة !!.

إننا نشير هنا إلى أننا نتجاوز التعريفات الرافضة والمشككة في وظيفة

١- انظر: برونوفسكي: العلم والبداهية ص ٦٤.

٢- انظر: (بتصرف) جيمس كونانت: مواقف حاسمة في تاريخ العلم، ص ٤، طبع دار المعارف.

العلم، ونرى أن هذه التعريفات مجرد نظرات شخصية متشائمة ولسنا هنا بصدد الوقوف عند مثل هذه النظرات الضيقة.

رحلة الدين والعلم في التاريخ:

لم تصل بنا التعريفات السابقة، كما لم يصل بنا فهمنا الخاص لمعنى الدين والعلم إلى أن ثمة تعارضًا بينهما، بل إن التكامل بينهما هو الأمر الأقرب للصواب، فكلاهما محاولة للتعرف على المطلق، والانسجام مع القوانين الكونية، وكشف حجب الحقائق كما هي وفق طريقتين متكاملتين: طريق يشرعه الله، وطريق يجتهد فيه العقل، وليس ما يشرعه الله إلا سياجًا يحمي مسيرة العقل من الحيرة والزيغ، وليس -كما يتصور البعض- عقبات في طريق مسيرة العقل، وكما أن التعريفات لا تفيد وجود تضاد بين الدين والعلم، فإن المسيرة التاريخية لمبادئ الدين والعلم المنبعثة من أصولهما ومبادئهما «وليس سلوك رجال الدين» لا تفيد تنافرًا ما بل تفيد التعاضد والتكامل، وإذا كانت حضارة عصر النهضة انبثقت عنها الحضارة الحديثة التي أنتجت روح خصام بين الدين والعلم، فإن مبعث هذا ،في الحقيقة، هو موقف رجال الكنيسة وليس الدين نفسه... إذ وقف رجال الكنيسة ضد العلماء وأحرقوهم ونكلوا بهم.

ويضاف إلى ذلك موقف بعض رجال العلم أيضًا.. هؤلاء الذين اتخذوا رد فعل قاسياً ضد رجال اللاهوت المتشددين فذهبوا إلى تحطيم كل ما هو «ثابت» في الكون والفكر!!.

لقد نشأ الفكر الذي هو أب للفلسفة والعلم من الدين نفسه، وبما أن الفكر قد بدأ فلسفيًّا أقرب إلى «الميتافيزيقية» فإنه في هذه المرحلة كان يعيش في محضن أبيه «الدين» بطريقة مباشرة، وقد ظلت «الفلسفة» ردحًا من عمرها تحاول خدمة والدها الشرعي، عن طريق تكييف المعقول وتوجيهه بحيث يخدم المنقول الإلهي، ولم يحدث التمرد من جانب الفلسفة على

الدين إلا في تلك العصور التي كانت تتوه فيها معالم الدين الحق، وذلك مثل العصر اليوناني الذي برزت فيه الأساطير بشكل سيئ وانحطت صورة الألوهية إلى درجة مزرية على يد المتاجرين بالألوهية «الميثولوجيا الشعبية» وقد نسب الأثنيون إلى الآلهة كل ما هو مخجل أثيم في البشر، وظهرت بالتالي الفلسفة ساخرة متعالية غير حافلة بالمعتقدات الدينية [١]، وذلك كرد فعل للتصورات البدائية التي روجها الكهنة الوثنيون. لكن الفلسفة لم تلبث أن حاولت العودة إلى محضن الدين على يد سقراط الذي يعتبر الجريمة أسوأ من الموت، ويعتبر الموت دخولا لقصر الله.

وقد سلم أفلاطون وأرسطو بالاعتقادات الموروثة في ألوهية السماء، وميز أفلاطون الفيلسوف عن غيره بأنه القادر على فهم فكرة الله سر الحياة المقدسة [٢] حتى إذا جاء الرواقيون أخذوا على عاتقهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المعتقدات الدينية، فأوّلوا كل ما يمكن تأويله من الأساطير والرموز.

ثم كانت الأفلاطونية الحديثة التي نظرت إلى جوهر العقل، وحاولت أن تتعالى بمذهبها في الواحد اللا متناهي فوق العقل نفسه، وسمت بالإلوهية عن الأشياء والحياة عن الفكر نفسه.

وإن كانت قد وضعت سلمًا من الكائنات المتوسطة بين الصور العليا للموجودات والصور الدنيا، فسوغ أفلاطون وتلميذه «فرفريوس» من وجهة نظر العقل جميع مبادئ الدين، دون تمحيص عقلي مؤولا القرابين والأيقونات والسحر بأنها رموز متوسطة بين المحسوس والمعقول، وأنها تشارك في الحقيقة بما تمارسه من دور ضروري يوجه الإنسان نحو الجوهر اللا مادي الذي ليس كمثله شيء [٣].

١- إميل بترو: العلم والدين ص١٠ طبع القاهرة.

٢- انظر: محمد عبد القادر:بيولوجية الإيمان، ص: ٢٠.

٣- بتصرف: بترو: العلم والدين ص ١٤، ١٥.

أما في مصر القديمة، مهد الحضارات، فإن فكرة الإيمان والتوحيد لاقت رواجًا كبيرًا على الرغم من التقدم العلمي الذي عرفت به مصر خلال هذه العصور، وقد بلغت فكرة التوحيد ذروتها على يد (إخناتون ١٣٧٥ قبل الميلاد) الذي ولي الحكم بعد أبيه أمنحتب الثالث.

وكان إخناتون رجل دين وفيلسوفًا معًا، ولهذا دخل في صراع مع المتاجرين بالدين من كهنة طيبة أصحاب النفوذ. وقد عمد إخناتون إلى إبراز الإله (آتون) في صورة تجريدية، وتوحيدية، وعالمية، تقترب كثيرًا من صورة الإلهية في الأديان المعروفة [1].

وفي الهند، كما في مصر واليونان، ظهرت النزعة الدينية والفلسفية أيضا: وقد تجلت في الهندوسية القديمة «البراهيمية» واجتمعت في شخصية كل من «بوذا» و«فاردهمانا ماهاميز» شخصية الحكيم «الفيلسوف» ورجل الدين معًا.. ونشأ عنهما مذهبان فيهما قدر من الفلسفة وقدر من السمو الروحي، هما البوذية، والجينية التي تعتبر ابنا ثانيًا للبراهيمية. وفي الصين ظهرت الكونفوشيوسية سنة ٥٥٠ قبل الميلاد، فأحيت التراث الفلسفي للصين، ممثلا في الكتب الدينية الخمسة القديمة التي يمتد أولها إلى ٣٠٠ سنة قبل الميلاد.

وفي اليابان ارتبط اليابانيون بالديانة «الشنتوية» التي تعني طريق الأرواح الخيرة وكان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد.

وفي فارس ظهرت المجوسية في القرن الخامس قبل الميلاد على يد الحكيم (سبتا مازارازوسترا).

وهكذا نستطيع أن نستعرض بقاع الأرض كلها، لنرى صورًا من المسيرة المشتركة بين الحكمة (الفلسفة) والدين، ولنرى أن الفلسفة والدين كانا

١- انظر: د. محمد محمود عبد القادر: بيولوجية الإيمان ص ٣١ وما بعدها.

يفرضان تأثيرهما ما داما في حدود الحق والعقل والخير للإنسان، وأنهما كانا سينحدران معًا إذا أصبحا لعبة في يد سوفسطائيين أو كهنة متاجرين.

وعندما جاءت اليهودية إلى العالم كانت دفعة جديدة إلى تقدم العالم. وكانت الشريعة الموسوية أكبر حافز لتكوين خلق اليهودي القوي، والتمكين من تنظيم الحياة والحث على العناية بالنفس والجسم والرفق بهما، وقد أعطت اليهودية للعالم التوحيد، كما أعطته أول تبشير بالعدالة الاجتماعية ووحدة الإنسانية [1].

وكانت في عهد موسى وهارون إحياءً للحنفية الإبراهيمية التوحيدية الكريمة ولدعوات كل الأنبياء السابقين، فلما جاء الفكر المسيحي لم يكن ثمة مجال لإيجاد صراع بين الدين والعقل في مراحله الأولى.. لقد كانت المسيحية تركز في المراحل الأولى على المحبة، كما أن فكرة الإلوهية فيها لا تتعارض مع أي إبداع أو تفسير عقلي للظواهر، فكل ما في الكون إنما هو نماذج لقدرة الله خلقها من العدم بمشيئته المطلقة « وقد التقت المسيحية بالفكر العقلي والعلمي متشحًا برداء الفلسفة اليونانية، ووجدت في هذا اللقاء مناسبة تجلو فيها لنفسها روحها الخاص بها، فقدمت المسيحية الإيمان بالوحي السماوي والإحساس ببؤس الإنسان، والإيمان بإله المحبة والرحمة.. ثم آثرت المسيحية أن تأخذ من الفلسفة اليونانية ما يفيدها في دعم عقائدها؛ فأخذت علم الوجود (الأنطولوجيا) وأخذت المنطق الأرسطي بعد أن صبغته بصبغة صورية بحتة» [2].

وفي الحضارة الإسلامية كان الالتحام بين «العلم» وبين الدين واضحًا وقويًّا، بل إن الإسلام جاء منذ آياته الأولى يعلن ميلاد عصر «العلم» والإيمان عن طريق «العلم».. يقول الله في القرآن الكريم: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ

١- ول ديورانت: مباهج الفلسفة ٢/ ٣٥.

٢- انظر إميل بترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ص١٥.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

لقد حشد القرآن ما يقرب من سبعمائة آية في تحريك العقل البشري وانتشاله من وهدة التقليد والتبلد، كما حشد عشرات الآيات لإيقاظ الحواس من سمع وبصر ولمس، وعشرات أخرى لإيقاظ التفكير والتفقه، فضلا عن آيات طلب البرهان والحجة والجدال بالتي هي أحسن.. بل إن القرآن أضاف حقيقة في غاية الأهمية هي أنه أطلق كلمة العلم على الدين[2]، كأنما يمزج بينهما في مرحلة العصر القرآني مزجًا لا فكاك له. ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن.

يقول القرآن الكريم مخاطبًا النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3]. أي من بعد ما جاءك من الدين، ويقول: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[4]. أي الدين، ويقول الله عن القرآن نفسه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾[5].

فالآيات كلها تفيد أن ما أنزل الله على محمد من دين إنما هو «العلم» وأن القرآن على «علم» كما تبين آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾[6]. هذا المزج الذي يتجلى في أوضح صورة في التاريخ الإنساني بين العلم والإيمان.

١- سورة العلق: ١ – ٥.

٢- انظر: عماد الدين خليل، تهافت العلمانية، ص ٢٧، طبع بيروت (بتصرف).

٣- البقرة: ١٤٥.

٤- آل عمران: ٦١.

٥- الأعراف: ٥٢.

٦- الروم: ٥٦.

وحسبنا أن نشير إلى أن كلمة «علم» بتصرفاتها المختلفة قد وردت في القرآن الكريم في أكثر من سبعمائة وخمسين آية!!

تلك هي بعض معالم مسيرة الدين والعلم في أصولها وأهدافها أي في مستوى «التنظير».. أما مسيرة «التطبيق» أعني مسيرة الرجال الذين حملوها، وتصدروا الدعوة إليها فتلك قضية أخرى منفصلة سنتناولها في الصفحات التالية.

قضية النزاع بين الدين والعلم:

يستطيع المؤرخ الأمين أن يزعم بأن النزاع بين الدين والعلم لم يظهر في مراحل كثيرة من التاريخ، لأن « العلم » كان في موقف المستسلم اليائس من المعركة، وأن السيطرة كانت مطلقة لرجال الدين. ولما شب العلم عن الطوق أقيمت له على يد كنيسة العصور الوسطى المذابح الهائلة التي ترتعد لها الفرائص.

وقد يكون هذا صحيحًا بالنسبة لعلاقة الكنيسة الأوربية في العصور الوسطى بالعلم، لكننا لم نشهد في عصور التاريخ المختلفة، ولا في سير الأنبياء الآخرين مثل هذا الأسلوب.

كما أن اليهودية التي حفلت أسفارها بكثير من التناقضات العقلية لم تشأ أن تعلن مثل هذه الحرب على العلم فيما نعلم من تاريخها.

بل إن اليهودية – حتى في العصر الحديث – قد قدمت أكثر العلماء شذوذًا وتمردًا على القيم الدينية، ومع ذلك افتخرت بهم، ولم يلحقهم أذى من قِبَلهم، بل نالهم الأذى من رجال الكنيسة المسيحية.

أما في الحضارة الإسلامية، فعلى مستوى التطبيق الإسلامي، فضلا عن موقف القرآن، فإن ما يسمى بالنزاع بين العلم والدين أمر لم يظهر كقضية في الحضارة الإسلامية، بل قد اعتبر العلماء الطبيعيون والفلكيون والرياضيون

أنفسهم في عبادة لا تقل عن عبادة إخوانهم علماء الدين، وقد وضع علماء الإسلام منهجًا تجريبيًّا حسيًّا وعقليًّا في البحث مختلفًا عن المنهج اليوناني. كما وضعوا نظريات علمية مستقلة للمعرفة «ايبستمولوجيا». وقد ظلت آثار هؤلاء العلماء المسلمين هي الآثار العلمية المعتمدة خلال العصر الوسيط كله، ومن هؤلاء العلماء: ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وجابر بن حيان مكتشف الصودا الكاوية وحامض الكبريتيك بعد تقطيره، والرازي مكتشف زيت الزاج، وعدة أمراض، وابن الهيثم مكتشف علم البصريات، والفرغاني واضع علم المثلثات، والكندي مؤلف علم البصريات، والإدريسي مثبت كروية الأرض [١]، فضلا عن ابن حزم الذي عقد فصلا كاملا لإثبات كروية الأرض نقلا وعقلا في كتابه الموسوم باسم « الفصل في الملل والنحل»، وابن البيطار في الصيدلة، وابن الحفيد في العدوى، وغيرهم ممن لا يمكن حصرهم في هذا المقام. والمهم أنهم جميعًا كانوا يتعبدون بعلمهم ويتقربون إلى الله به، دون أن يشعروا بأي انفصال، فضلا عن نزاع بين العلم والدين، بل كثيرًا ما كان بعضهم فقهاء في علوم الدين ورجال علم في الوقت نفسه !!

وقد بدأت القضية تطفو على السطح مع ظهور عصر التنوير أو عصر النهضة الأوربية، وبداية الوقوف بحزم من رجال العلم ضد سيطرة الكنيسة المطلقة، وكان من أبرز هؤلاء الرجال فرنسيس بيكون (١٦٠٦) ورينيه ديكارت (١٧٥٠) وباروخ أسبينوزا (١٦٧٧) وجون لوك (١٧٠٤) ودافيد هيوم (١٧٧٦) وفولتير (١٧٨٨) وعمانويل كانت (١٨٠٤) وجوهان فون جيته (١٨٢٣) وجورج هيجل (١٨٣١) وآثر شوبنهور (١٨٦٠) ورالف امرسن (١٨٨٣) وهربرت سبنسر (١٩١٠) وفردريك نيتشه (١٩٠٠) ووليم جيمس (١٩١٠) وجان جاك روسو وغيرهم، وقد بالغ هؤلاء في تحديهم فألقوا حبة الحنطة مع قشرتها، ورفضوا الدين والكنيسة معًا، وتعاونوا–بالتالي–

١– أنور الجندي: الإسلام والتكنولوجيا، نشر مصر، ص:٤٠،٤١.

مع الكنيسة التي وقفت ضد العلم في إشاعة جو «العلمانية» و«اللادينية» و«المادية» في روح المدنية الحديثة. وذاق العالم الكثير من الدمار من جراء هذا الانفصام والصراع في أخلاقه وقيمه التي آمن بها على امتداد تاريخ البشرية كله، بحيث بدا صرح الفكر الإنساني وكأنه بناء آيل للسقوط.

* * *

اعتراضات اللادينيين ضد الدين:

سنطرح تلك الأفكار الثورية والعبارات الصارخة التي يقولها اللادينيون عن الدين، لأننا هنا في مجال بحث رصين، ولسنا في مقام استعراض شعارات « أيديولوجية » فارغة، يلوكها البعض دون وعي بمضمونهما.

وكما أننا سنطرح شعارات عصر فولتير والثورة الفرنسية ضد الدين فإننا أيضا، ولنفس السبب، سنطرح شعارات الماركسيين، فكلها ردود أفعال عنيفة لا مضمون لها، وسندخل إلى حلبة العلماء في عقل وأناة لنرى ماذا يقدمون من اعتراضات علمية ضد قضية الدين، ولنرى هل بإمكاننا أن ندير حوارًا علميًّا معهم، أو على الأقل نستنجد بعلماء آخرين –كمحامين– يردون دعاواهم؟

فمن ناحية المنهج: هل يختلف منهج البحث في الدين عن منهج البحث في العلم ؟

إننا إذا نظرنا إلى الشروط المطلوب توافرها في الباحث هنا وهناك، من حيدة وعدل، ونزاهة وموضوعية لوجدناها واحدة.. فهل ثمة خلاف في أساليب البحث نفسها ؟

وإن تنظيم الأفكار والتمهيد لها ببعض الفروض، ثم اختبار هذه الفروض، واستخلاص الظواهر العامة منها في ظل شمولية، ودقة، واستقراء كامل، إنما هي معالم التنظيم المنهجين معًا، منهج البحث في مجال العلوم الدينية

ومنهج البحث في مجال العلوم الدنيوية «الطبيعية».

إن الخلاف يأتي من تصور أمرين:

تصور أن مجال البحث، أي موضوع البحث، مختلف، فموضوع البحث الديني، هو « الميتافيزيقيا » وموضوع البحث العلمي هو « الفيزيقيا » وبالتالي فإن أهدافهما مختلفة وطرائق بحثهما مختلفة.

والحقيقة أنه كان من الأولى، عند هذه النقطة، أن يكون اختلاف مجال الدين ومجال العلم نقطة التقاء، إذ أنه لا تعارض بينهما، بل هما يتكاملان ويسد كل منهما فراغًا لا يسده الآخر.

هذا، دون أن نلغي أن مجال الدين يمتدليشمل حياة الناس وواقعهم.

والتصور الثاني الذي انبنى عليه تصور التناقص بين الدين والعلم أن طريقة البحث بينهما مختلفة تبعًا لاختلاف موضوع البحث، فما دام العلم يبحث في هذا العالم فإنه يبدأ من الحواس، ويعتمد على المعامل والمختبرات، ويستعين بالوسائل السمعية والبصرية، أما الدين فمجاله في جانب الغيبيات هو اللامنظور، ووسائله هنا تجريدية وعقلية، وبالتالي فلا لقاء بينه وبين العلم، لا في موضوع البحث ولا في منهج البحث.

وفيما يتعلق بالتصور الأول فالحقيقة أن موضوع البحث الديني ليس ما وراء الطبيعة وحسب، بل إن الإنسان والكون المادي الذي هو موضوع نظر العلم، كلاهما من مجالات البحث الديني أيضًا [١]..

فاختلاف مجال البحث بين العلم والدين أمر مشكوك فيه، ليس فقط من جهة ما ذكرناه من أن الدين يمد النظر والرؤية إلى سائر الكون بما فيه الإنسان ويحث المؤمن على البحث في آفاق الأرض والنفس حتى يتبين له الحق.. بل إن سور القرآن تتوالى حاملة أسماءها وكأنها تعرض

١- عبد المنعم خلاف، المادة الإسلامية وأبعادها ص ١٩، طبع القاهرة.

شاشة الكون كله لتكون مجالا للبحث،.. انظر أسماء هذه السور: «الرعد – النور– الدخان – النجم – القمر – المعارج – التكوير – الانفطار – الفجر – الليل – الضحى – الزلزلة»... وغيرها مما يمت بصلة إلى مظاهر الكون وآفاقه المختلفة.

لكن مجال البحث بين العلم والدين متفق من جهة أخرى، هي أن موضوع العلم قد امتد إلى ما وراء الطبيعة، وقد أصبح بإمكان العلم تناول ظاهرة أولية « حدوث العالم » وليس أزليته، بالإضافة إلى نهايته، وذلك في ظل كشف «القانون الثاني للحرارة الديناميكية» والذي يصف لنا انتقال الحرارة دائما من «وجود حراري» إلى «عدم حراري»، وأن العكس غير ممكن وهو ما يجعل كفاءة عمل الكون تقل يومًا بعد يوم، ولا بد من يوم تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات وحينذاك لا تبقى أي طاقة مفيدة للحياة والعمل، ويترتب على ذلك أن تنتهي العملية الكيميائية والطبيعية [١] وتنتهي تلقائيًّا الحياة، نفسها.

لقد أصبح موضوع البحث متقاربًا جدًّا إذن بين موضوعي العلم والدين، وقد أعجبني في بيان هذا الأمر عنوان الفيلسوف الذي لم يستطع أن يصل إلى شاطئ الحقيقة على الرغم من توافر كل الوسائل لديه، أعني «برتراند رسل»، فقد وضع عنوانًا لفصل من فصول أحد كتبه أسماه «الميتافيزيقا العلمية». وفي هذا الفصل يسجل على الرغم منه ذوبان تلك الحدود الفاصلة بين موضوعي العلم والدين، وهو يأسف لأن رجل الشارع ما كاد يؤمن بالعلم حتى بات رجل المعمل يفقد إيمانه به، بحيث إن الفلسفة الجديدة لعلم الطبيعة فلسفة متواضعة متلعثمة، بينما الفلسفة السابقة متكبرة متغطرسة[٢]، ولا يملك «راسل» إلا أن يعترف أمام القانون الثاني للحرارة الديناميكية بأن الكون الآن يعتبر متناهيًا، ويتكون من عدد محدد

١– وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى ص ٧٤.

٢– برترانداسل: النظرة العلمية، ص٧٤.

من الإلكترونات والبروتونات، وأن له بالتالي بداية كان عندها منظمًا تنظيمًا كاملا، ثم بدأ يفقد أجزاء من كماله في اتجاه الفناء [1].

كما أن راسل، ومِنْ خلفه علماء الطبيعة جميعًا، يعترفون بأن منهج علم الطبيعة قد تغير في الأعوام الأخيرة، حيث لم تعد المادة تتركب من قطع صلبة صغيرة وقد عاد بالتالي إلى نفس الفكرة التي كان ينادي بها جيل الفلاسفة من أمثال: بركلي وهيوم.. وليبنتز.. وكانت، وهيجل.

ويدلل بعض رجال التاريخ على تقارب وحدة الموضوع بين الدين والعلم حين يرون أن الفلسفة التجريبية للقرن السابع عشر، إنما نشأت في جو نظام فلسفي يتصل بما وراء الطبيعة، وأنه لولا هذا النظام لما وراء الطبيعة لما كان هناك تجريب، ولا كان علم.

إن التشابك قائم بالتأكيد بين «الموضوع» الذي يدرسه الدين والعلم، وليس هناك ما يحول دون أن تتجه اهتمامات هذا إلى ناحية أكثر من اهتمامات ذاك. كما أنه من المعقول أيضًا أن تختلف الأهداف المباشرة لكل من العاملين في الحقلين، وإن كان من المؤكد أن الأهداف الكبرى والنهائية واحدة.

أما المشكلة الكبرى، في تصور بعضهم، فهي أن وسائل العلم في إثبات حقائقه واختيارها مختلفة عن وسائل الدين.

وقد يكون هذا صحيحًا بالنسبة لقضية واحدة يستقل بها الدين، ولا يقحم فيها العلم نفسه، وهى قضية اهتمام الدين بالكشف عن سر الكون كله والتعرف إلى خالقه، والتعامل معه معاملة تليق به انطلاقا مما حدده في وحيه الديني.

والحقيقة أننا لم نفهم إلى الآن: لماذا ينزعج العلم من أن الدين يرتاد حقلا... يرى العلم نفسه عاجزًا عن ارتيـاده؟!! ونحن ننزعج أكثر من

١- نفس المرجع السابق،ص ١٠٨.

بعض من يتسمون بعلماء، ويرفضون كل مقولات الدين، مع أنهم لم يرتادوا منطقته كما ينبغي، وبالتالي نراهم يحكمون على ما لم يبحثوا أو يعرفوا.

والقضية واضحة تمامًا وليست فيها أي لبس، فإن ما وصل إليه العلم من اكتشافات سواء في عالم الكون أو الإنسان إنما هو شيء خاص بالعلم، ولا ينفي ما يقول به الدين، ذلك لأن العلم، احترامًا منه لطاقاته المحدودة، لم يفسر لنا قضايا ما وراء الطبيعة، وكل القوانين التي اكتشفها العلم تفسيرًا لحركة الأشياء لا تنفي ما يقول به الدين، ففهمنا «لكتالوج» أي ماكينة، ولأسلوب عملها وتركيبها – وهو الدور الذي يقوم به العلم – لا علاقة له بما يقول به الدين من أن هناك صانعًا صنع هذه الماكينة، ووضع لها هذا القانون الذي تنتظم حركتها به.

وسواء اكتشف لنا نيوتن نظرية «الجاذبية» أو ألبرت أينشتاين نظرية «النسبية» التي ابتلعت نظرية الجاذبية في أحشائها، أو اكتشف «لامارك» و«دارون» نظرية «النشوء والارتقاء»، سواء صح هذا أو ذاك، فهل ينفي هذا قول الدين: إن للعالم صانعًا مثلما لكل شيء صانع، وإن هذا الصانع، أمام عظمة ما أبدعه، هو عظيم قدير محيط يستحق التبجيل والطاعة.

هل ينفي وجود مصنع عظيم مبني على أسس علمية عظيمة أن وراء بنائه عقلا عظيمًا؟ إن الطبيعة بكل قوانينها حقيقة من حقائق الكون، وليست تفسيرًا له، وما يكتشف من قوانين ليس نفيًا للصانع، بل هي – على أحسن احتمالاتها، إن صحت بصورة مطلقة، وهذا بعيد في منهج العلم – ليست إلا بيانًا لخلق الله: إن العلم الحديث تفصيل لما يحدث، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع، فكل مضمون العلم هو إجابة عن السؤال.. «ما هذا» وليس لديه إجابة عن السؤال «ولكن لماذا؟» ويوضح البروفسور «سيسل بايس هامان» – وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا – هذه الحقيقة في شرحه لقضية صيرورة الغذاء جزءًا من البدن عن طريق العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدًا.

فيقول: لو أنك سألت أي طبيب: ما السبب وراء احمرار الدم؟ لأجاب: لأن في هذه الخلايا مادة تسمى«الهيموجلوبين» وهي مادة تحدثها الحياة حين تختلط بالأكسوجين في القلب، حسنًا ولكن من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل «الهيموجلوبين»؟ إنها تصنع في الكبد. عجيب، ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها بعضها ببعض ارتباطًا كليًّا وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة البالغة؟

- هذا ما نسميه بقانون الطبيعة. ولكن ما المراد بقانون الطبيعة يا سيدي الطبيب؟

- المراد بهذا القانون هو: الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية..؟

ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائمًا إلى نتيجة معلومة؟ وكيف ينتظم نشاطها حين تطير الطيور في الهواء ويعيش السمك في الماء، ويوجد الإنسان على سطح الأرض بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة؟ [1].

إن هذا ما لا يجيب عليه العلم. إنه يترك الإجابة للدين.. وإذا كنا نعتقد أن العلم قادر على استكناه الإجابة، فالعقل بالتالي يمكن أن يلتقي مع الوحي.

ويقول ابن طفيل في ذلك على لسان بسكال في قصة حي بن يقظان، ويلتقي معه الفارابي وابن سينا فيما يلي:

«إن العقل يستطيع بما لديه من الأفكار الفطرية الأولى أن يدرك الحق فيما يتعلق بالمبادئ الأولى ويدرك منها وجود إله، وأما ما وراء ذلك من أسرار الوجود والخلق والخالق المحجوبة عنا بحجب الغيب فهو أعجز من أن يدرك كنهها وأحقيتها؛ لأن الحواس لا تدرك غايات الأشياء.. ونحن نرى أن العقل قادر على إدراك القوانين واستنباط الكليات والوعي بالعلل لو أنه

١- وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى: ص٤١.

تحرر من ضغوط المكابرة والعناد الإلحادي. «وما لا يستطيعه هو: التفاصيل والجزئيات التي يأتي بها الدين» وتعتبر حقائق من الدرجة الثانية، ومن المفروض أن تقبل تبعًا للحقائق الكبرى، لارتباطها العضوي بها.

كما أن العقل – أيضًا – وإن كان قادرا على إدراك وجود الله، فهو عاجز عن إدراك «كنه الله»، ولا أعتقد أنه من البحث العلمي في شيء الإصرار على البحث في «كنه الله»، لا لأنه «ليس كمثله شيء» ولا لأنه لا يدرك بالحواس وحسب. بل لأنه لا يوجد عالم طبيعي يستطيع أن يعرف كل شيء عن حقيقة ذبابة واحدة وخواصها، فضلا عن أن يعرف «كنه ذات الله» وهل يرجو الإنسان الذي لا يعرف المادة، ولا يعرف كيف يعرف، ولا يدرك كيف يدرك، أن يدرك حقيقة الله؟[1].

إننا ندرك أن وسائل العلم هي الحواس والملاحظة والتجربة، وأن وسائل الدين في إثبات حقائقه تتعدى هذه الوسائل المحدودة إلى استثمار طاقات إنسانية أخرى، لكن هل يصلح اختلاف الوسائل في الوصول إلى الهدف مسوغًا لإحداث نزاع بين الدين والعلم؟

ومع ذلك فنحن نزعم أن العلم أيضًا لم يكتف بالوسائل الحسية والتجريبية، وأن كثيرًا من أساليبه هي أساليب غيبية وافتراضية واستنباطية أيضًا مثلما الحال في منهج البحث الديني.

وعندما نتناول «الفيزياء» مثلا فإننا نجد أن مفاهيمها الأولية قد استوحيت من واقع الخبرة، وفي حقيقة الأمر يبدو قولنا إنها «استوحيت» أقل من أن يعبر عن الواقع، ولم يكن يقصد في الأصل بمصطلحات «الفيزياء» سوى تقديم أسماء افتراضية لصفات معينة مما يلاحظ في العالم الخارجي.. وعلى سبيل المثال فإن «نيوتن» في استخلاصه لمفهوم الكتلة قد رأى أنه أبرز شيئًا موضوعيًّا حقيقيًا موجودًا في العالم الخارجي وأعطاه تسميته،

١- نديم الجسر: قصة الإيمان ص ١٣١ ، ٢٠٥.

وقد اعتبرت خواص المادة الأخرى مثل الحجم والشكل والوضع والسرعة موجودات موضوعية محددة وأنها مجرد رموز ذاتية لحقائق غير منظورة، أما فكرة «القوة» فقد كانت أشد غموضًا، ولقد اعتبرت كيانًا نصف وهمي وأكثر تجريدًا من المفاهيم القريبة مثل الكتلة والسرعة، وما إليها، ولا يقل عنها غموضًا فكرة الطاقة الكامنة التي يكتسبها الحجر عن الحركة أثناء سقوطه. إنها قوة من الصعب اكتشافها إلا عندما تتحول إلى شكل آخر من أشكال الطاقة.

إن جارودي يشكو –عندما كان يساريًا– من سيطرة المفاهيم «الغيبية» على علم الطبيعة ويقول: لا نستطيع أن ندرك بوضوح مفهوم الحركة إلا بطرد أشباح القوى المزعومة – الميكانيكية، الحرارية، الكيميائية، الكهربائية، المغناطيسية، البيولوجية – فكل قوة من هذه القوى المزعومة ليست سوى حثالة لنزعة الغيبية [1].

ونحن لا ندري كيف يمكن طرد هذه الأشباح دون أن نسقط بناء علم الطبيعة الحديث؟.. وبتعبير آخر: هل يمكن أن يرفض العلم «الغيب» ويسقطه من حسابه كما يطالب جارودي؟

لقد أجبنا عن ذلك في حديثنا السابق حين تحدثنا عن المفاهيم الغيبية العامة التي يعتمد عليها العلم في بناء هياكل قوانينه، ومع ذلك فنحن نزيد الأمر إيضاحًا ونتساءل: هل بمقدور العلم أن يخضع كل الظواهر الطبيعية لأساليبه القاصرة؟ هل يستطيع أن يخضع الذبذبات الصوتية الضئيلة والأشعة ما فوق البنفسجية والضوء الإلكتروني لأجهزته؟

وحتى إذا تمكن من إخضاع هذه فثمة عشرات من الظواهر ستنكشف له ولا يستطيع إخضاعها.. وسيظل العالم غارقًا في الغيبيات إلى آخر المدى.. إنه يستخدم الكهرباء والإلكترون والطاقة والأجهزة الإلكترونية والموجة

١- المادية بين الأزلية والحدوث، (محمد حسن ياسين)، ص ٥٠، طبع القاهرة.

اللاسلكية، ولا يعرف كنه هذه الطاقة كلها [1] إنه فقط يعرف العلاقات والكميات والقوتين، ولكن يجهل ماهية أي شيء..!!

- أجل.. ماهية أي شيء.!!

لقد سقطت كل حجج اللادينيين والماديين ضد الدين موضوعًا ومنهج بحث، ولقد ظهر التقارب والتكامل واضحًا بين الدين والعلم في المجالين فلم يبق إلا أن نقول: من الضروري أن لا تكون المادة وعلاقتنا بها شيئًا تافهًا لا يستحق الوقوف عنده بالفكر طويلا، كما لا ينبغي أن تكون هي الأمر الوحيد الذي نقف عنده غافلين عما وراءه من قيم ومثل يدركها العقل[2]. إن الماديات هي أبجديات ومفردات وكلمات تنشأ عنها تجاربنا الحسية فنعرف الحقائق العلمية التي لولاها ما أدركنا شيئًا من الحقائق الروحية والقيم العليا التي وراء المادة، إنهما معا، الماديات والحقائق العقلية العليا، طريق المعرفة الإنسانية الصحيحة.

* * *

أصل المشكلة بين الدين والعلم:

بصرف النظر عن أن أصل المشكلة قد يتركز في بعض الرجال في كلا الحقلين، هؤلاء الذين يفرضون إرادتهم الحديدية على حركة المصدرين العظيمين للحياة الإنسانية خضوعًا لاعتبارات شخصية، أو لضيق أفق.. بصرف النظر عن هذا، فإن التاريخ يدلنا على أن الرحلة من فيثاغورث إلى كوبرنيكوس إلى جاليليو رحلة مليئة بالأسى والحسرة، بسبب خوف كنيسة العصور الوسطى على نفوذها وادعائها أنها وحدها مصدر العلم، مُغْلِقَةً كل منافذ العقل وهذه حقيقة تاريخية معروفة.

١- مصطفى محمود: لغز الحياة: ص ٩٥.

٢- خلاف: المادية الإسلامية ص ٦٠.

لكن المشكلة مع ذلك عند بعضهم ليست في رجال الدين وحدهم، فالبحث العلمي المحايد يثبت أن للمشكلة جانبين آخرين: جانبًا في الكتب المقدسة، فلم يعد مقبولا أن تظل القيمة الدينية التاريخية للنصوص المنسوبة إلى الله اليوم بمعزل عن الدراسة التاريخية النقدية والعلمية لكي نثبت ما صدر عن الله، وننّفي ما أضيف من البشر، وذلك يوجب دراسة الظروف التاريخية والعامة التي سادت تحرير تلك النصوص، ولا سيما بعد أن أصبح نقد النصوص علمًا، فقد كان له الفضل في جعلنا نكتشف مشاكل خطيرة، من متناقضات وأمور بعيدة عن التصديق، وكلها تظل باقية بلا حلّ، وإننا لنأسف مع « موريس بوكاي » لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافًا لكل منطق.. إن ذلك بحق موقف يسيء كثيرًا إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المثقفة[1].

لكننا هنا يجب أن نسارع فنحذِّر من العجلة في الحكم على النصوص.. فالتطور العلمي سريع ومتغير، وبالتالي فلا يعتمد من حقائق العلم إلا ما ثبت بشكل نهائي، لكن عندما نعرف أن أسفار العهد القديم قد كتبت على مدى تسعة قرون، وأنها قد صححت وأكملت أكثريتها بسبب أحداث حدثت، وضرورات خاصة، فإن لنا أن نخضع هذه الأسفار لمنهج نقدي تاريخي وعلمي يوثق نسبة نصوصها إلى الله، وينفي الإضافات الأدبية التي اتصلت بالنص الديني..

وقد أَحْسَنَ المجمع المسكوني الفاتيكاني الذي أصدر وثيقته بعد ثلاثة سنوات من المناقشة (٦٢-١٩٦٥) حول أسفار العهد القديم (التوراة) فقال: «بالنظر إلى الوضع الإنساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح، تسمح أسفار العهد القديم للكلّ بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسان.. غير أن هذه الكتب تحتوي على شوائب وشيء من البطلان»..

١- موريس بوكاى: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص١٠، طبع مصر.

ويتحدث عن هذا الأمل الأب (كانيجس) الأستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس، فيقول: «يكاد شعب المؤمنين ألا يعرف بهذه الثورة التي حدثت في مناهج تفسير التوراة.. إن هذه الثورة تفتح الطريق بشكل يقل أو يكثر لانقلاب في أرسخ رؤى تقليد الوعظ والإرشاد الكنسيين.. إنه لم يعد واجبًا الأخذ بحرفية الأحاديث الواردة عن المسيح في الأناجيل فهي كتابات ظرفية أو خصامية»[1].

أما من ناحية ما تتضمنه أسفار التوراة والأناجيل من إشارات علمية فالذي يبدو لي أنها إشارات قليلة جدًا وعامة، وأكثرها يتعلق بقضايا خلق الكون وأصله، ومراحل تكوينه، مما هو بعيد عن منطقة التحقيق العلمي، وكل ما ورد من معلومات يمكن أن يقوم على أساس مدى سلامتها من التناقض الداخلي، ومدى مطابقتها للمنطق والعقل، وما ثبت من معلومات تاريخية مؤكدة..

وعلى العكس من ذلك فإن القرآن تضمن إشارات علمية كثيرة بعضها لم يكن بإمكان القرون السابقة قبل القرن العشرين أن تفسره وتعرفه وبعضها تنبؤات علمية تحققت، وبعضها أصبح في حكم القانون العلمي كآية: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[2].

ونحن لا نميل إلى التسرع في التفسيرات الجزئية العلمية للآيات القرآنية على النحو الذي ذهب إليه بعض المعاصرين، إلا أننا نعتقد أن المنهج الذي التزم به الأستاذ «نديم الجسر» في كتابه (قصة الإيمان) ومنهج وحيد الدين خان في كتابه (الإسلام يتحدى) هو المنهج المقبول، لأنه المنهج الذي يبرز القوانين الطبيعية التي توشك أن تستقر قواعدها.

* * *

١- المرجع السابق: ص٦٠، ٦٨.

٢- النازعات: ٣٠.

أما الجانب الآخر من القضية، ففي اعتقادنا واعتقاد من نعرف من الدارسين المحايدين، أن النص القرآني هو النص الوحيد الصادر عن اللّه بألفاظه ومعانيه، والمحفوظ في الصدور، والمكتوب أيضًا والمسجل كما هو الآن قبل وفاة النبي محمد المسؤول عن تبليغ النص الإلهي بأمانة كاملة، ثم دُوِّن، باعتباره نصاً كاملاً، في حدود العامين التاليين لوفاة النبي ﷺ، بعد التدوينات الجزئية التي تشهد بها كتب علوم القرآن وكان المسلمون جميعًا يتعبدون بتلاوته في الصلاة، خلال العام وبخاصة في رمضان، وهم جمع يستحيل تواطؤهم على تغيير النص أو التلاعب به، والجيل الذي تلقاه عن الرسول ﷺ هو الجيل الذي نقله إلى الأجيال التالية نصًا واحدًا برواية واحدة ولفظ واحد، في ظل الإيمان الذي يؤمن به المسلم العادي جدًّا من أن أي تغيير في كلمة قرآنية يعتبر كفرًا صراحًا وخروجًا عن الإسلام، وبالتالي فقد توافر للنص القرآني من الصحة ما جعل «موريس بوكاي» في دراسته المقارنة للكتب المقدسة يقول: «إن صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد[1]».

وأيًّا كان الأمر، فإن مشكلة الكتب المقدسة تمثل مشكلة يلزم دراستها دراسة علمية تاريخية وفق منهج النقد التاريخي، فضلا عن ضرورة عرض الحقائق العلمية الواردة في الكتب المقدسة على محك العقل والمنطق، وما يثبت نهائيًّا من قوانين العلم، وهذه إحدى جوانب مشكلة النزاع بين الدين والعلم.

أما الجانب الآخر للمشكلة، فهو رجال العلم الذين ينطلق بعضهم من تصورات ثابتة، وكأنها دين يدينون به، ولا يحيدون عنه بدلا، والحق أن برتراند رسل وهكسلي من أبرز النماذج على ذلك، إذ على الرغم من وضوح الحقائق العلمية يصرون على صرف النظر عن قضايا أساسية أهمها:

١- المرجع السابق: ص:١٥١.

غائية الكون، وتناسقه، والقضايا الماورائية، ويرفضون المعطيات الدينية للقوانين العلمية المكتشفة، على أمل اكتشاف قوانين مضادة، لأنهم، ابتداءً، لا يريدون الاعتراف بمبدأ خالق الكون مهما تكن الأدلة قوية وواضحة..

إن هؤلاء وخلّفهم معظم الأيديولوجيين والعلمانيين اللائكيين والماركسيين يصرون على فرض المذهب على المنهج، والتفسير الواحدي على الواقعة، وقد يخترعون مائة حلٍّ خيالي لكل مشكلة.. إلا أن يكون الحلُّ صادرًا عن الدين!!.

إن هذا أيضًا موقف لا علمي، وهو بحّد ذاته مشكلة!.

* * *

لوحة الكون.. تناسق وعقل:

سواء شئنا أم أبينا فإن العالم من حولنا مجموعة هائلة من التعميم والإبداع والتنظيم، ورغم استقلال بعضها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة وكل منها أكثر تعقيدًا في كل ذرة من ذرات تركيبها من المخ الإلكتروني [1].

إن ما يحدث في عالم النبات من تلقيح بين ذكورة وأنوثة بعيدة، ومن علاقات توافقية اضطرارية أحيانًا، ومن هرمونات تقوم بأداء وظائف مختلفة، ليدلنا على أن عالم النبات يخضع لتفاعلات دقيقة وحركة منظمة وقوانين ثابتة.

إن جميع النباتات والحيوانات لم تخلق لكي تعيش في بيئة ثابتة محددة الأوصاف، بل إن لديها من الاستعدادات ما يجعلها قادرة على مسايرة الأجواء والظروف الأخرى في حالة الاضطرار، فمن الذي زوّدها بأدوات القدرة على التكيف؟!!

ومنذ أكثر من مائة وعشرين سنة رتب العالم الروسي (مانداليف)

١- الله يتجلى في عصر العلم: مقال هاتاواى عن المبدع الأعظم.

العناصر الكيمياوية تبعًا لتزايد أوزانها الذرية ترتيبًا دوريًا، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد الصدفة، وقد تنبأ العلماء بفضل هذا الترتيب بوجود عناصر لم يكن البشر قد توصلوا إليها بعد؟!

وهذا الإنسان الذي لا يعدو في البداية أن يكون بيضةً مثل بيضة الدجاجة، قطرها يتراوح بين جزء وجزأين من ٢٤٠ جزءًا من القيراط، ووزنها جزء من مليون جزء من الجرام وهى تتلاقح مع حيوان منوي ذكر صغير جدًّا بالنسبة إليها؛ لأن طوله عبارة عن (٦٠ جزءًا من ألف جزء من المليمتر) وهو يتمتع بذكاء يسمح له أن يعبر إليها طريق الرحم الشاق، ويكون لنفسه رأسًا مكورًا يستطيع به أن يخرق جدار البيضة الهائل بالنسبة إليه ويصنع نهرًا من الماء يسبح فيه، مستخدمًا حركة لولبية تساعده على اللحاق بالبويضة في الوقت المناسب، وصانعًا بعنقه ذيلا يساعده على السباحة في بحر الرحم، وربط هذا الذيل ربطًا دقيقًا بأنشوطة يستطيع أن ينفك منها، إذا دخل إلى البويضة.

وعندما يلتقي بأنثاه يجدها قد أعدت له حفلة استقبال شخصية، وطردت شر طردة مائتي مليون من الحيوانات المنافسة كانت تسعى إليها، وفتحت له إلى قلبها بابًا خاصًا يسمى باب الجاذبية، فإذا دخل أغلق الباب وعاشا معًا في بيت الزوجية الذي يستعد كل شهر لاستقبال العروسين وإيوائهما وإطعامهما، فتنتفخ خلايا غشائه المخاطي، وتتّسع شعيراته الدموية، وتنشط الغدد!!

وتمضي الرحلة المشتركة بين الزوجين في بيت الرحم المضياف يتبادلان الهدايا الوراثية وعناصر التخطيط النووي (الكرموزمات) و(الجينات) [١] حتى يعبرا رحلة أخرى طويلة في اتحاد تام، وكل يوم من أيام هذه الرحلة حافل بإعجاز خاص.

١- نديم الجسر: قصة الإيمان، ص:٣٨١.

فإذا خرجا إلى العالم كانا إنسانًا سويًّا آخر، يحمل في حيازه الدماغي والجسمي من آيات الإعجاز الإلهي ما يكفي وحده أقوى دليل لوجود رحلة اتساق وانسجام ونظام دقيق يسيرها إله مبدع لهذا الكون !! ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1].

إن الكرة الأرضية باعتبارها جزءا من الكون تخضع لنسب مئوية معينة، وقد قسمها العلماء إلى أقسام دائمة، وحدَّدوا حجمها وسرعتها فيما يتعلق بمدارها حول الشمس ودورانها على محورها، وإذا وقع أي خلل في حجمها أو سرعتها اختل نظامها كله [2].

وتخضع كل الكواكب: عطارد، والزهرة، والمريخ، والقمر، لطبيعة خاصة ونظام خاص يحكم كلا منها، بحيث يبدو الواحد منها وكأنه حبة في عقد، وأضف إليها كل النجوم لتكتمل حبات العقد الجميل.

إن العناصر المبثوثة في الكون من نتروجين وأيدروجين وأوكسوجين وكربون وغيرها مبثوثة بحساب دقيق ونسب في غاية الدقة، وإن أي خلل في نسب هذه العناصر كان من الممكن أن يشعل الكون بحريق لا تطفئه مياه المحيطات.

وأي كون فسيح هذا؟ إن الضوء يقطع في الثانية ١٨٦ ألف ميل، وفي السنة يقطع ستة ملايين ميل (سنة ضوئية). ويبعد القمر عن الأرض، وهو أقرب الكواكب إليها ٢٤٠ ألف ميل تقريبًا. أما الشمس فتبعد ٣٣ مليون ميل تقريبًا. أما النسر الطائر فيبعد عنّا بنحو ٣٠ سنة ضوئية، والسماك الرامح يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أي ٢٩٤ مليون ميل تقريبًا.

ووراء هذا نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية، ووراء مجرتنا هذه سدم منها

١- الذاريات: ٢١.

٢- كريس مريسون: العلم يدعو إلى الإيمان، ص ٥٤.

سديم (المرأة المسلسلة) الذي يبعد عنا مليون سنة ضوئية [١].

وقد رأوا إلى الآن بآلات التصوير نصف مليون سديم!!!

وصدق القرآن العظيم ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [٢].

أجل: أي كون فسيح ومنتظم ومنسجم هذا؟!!

* * *

المستقبل للدين والعلم معًا :

- إذا قدر للبشرية أن يسيطر عليها العالم المادي وحده، فإنها تكون قد أسلست قيادته لذلك «المسيخ الدجال» الأعور الأعرج الذي يقودها إلى المادية الطاغية التي تدمر نفسها بنفسها.
- إن العلم نفسه يحتاج إلى حراسة الدين كيلا يزهق روحه في مستنقع الحسّ والتجسيد، محرومًا من نسمات التجريد الرحبة العالية.
- إن مفكرًا إسلاميًّا أوروبيًّا معاصرًا قد أعلن تشاؤمه من مستقبل العلاقة بين الدين والعلم، وحذَّرنا نحن المسلمين من التفاؤل الساذج بأن روح الحضارة الأوروبية المسيطرة تقترب من العلم، وهو يرى أن العلم الحديث على ما هو عليه ليس ميالا ولا مستعدًا لأن يقترب من الدين، إن العلم قد يتطور إلى اللاأدرية الشمولية[٣] ؟ لكن اقترابه من الدين غير متطور في المدى القريب!!
- وفي كلام هذا المفكر الأوروبي كبير حق ما دامت قافلة التنصير الكنسي قد تخلت عن دورها الفعلي في الحضارة الأوروبية، وراحت

١- نديم الجسر: قصة الإيمان،ص: ٣٠٦.

٢- الواقعة: ٧٥، ٧٦.

٣- محمد أسد « ليوبولد فارسي »: الإسلام على مفترق الطرق، ص: ٦٣، بيروت.

تصاحب الاستعمار، تبحث لها عن موقع هنا أو هناك باسم التنصير في بلد إسلامي أو إفريقي، متجاهلة أن خسارتها لأوروبا إنما تعدّ خسارة لقضيتها الأساسية، بل إنه لمن المؤسف أن بعض قيادات الكنيسة لا يقاومون الأديان الوثنية كالهندوسية والبوذية، ولا الأديان الوضعية، ولا يثيرون حملة عليها بقدر ما يبذلون جهودهم ضد الإسلام بالذات في آسيا الإسلامية وفي البلدان الإفريقية، وهم بذلك يضيفون إلى تخطيطاتهم المنحرفة بعدًا آخر من أبعاد الخسارة، حيث يعيقون هذه البلاد عن محاربة اللا دينية، ويفرضون عليها الانصراف إلى مقاومة الأخطار الكنسية التي كثيرًا ما ترتبط بالدعم الأجنبي!!

- وإنه لمطلب عظيم حقًّا أن نناشد إخواننا المسيحيين في العالم كله، بدءًا من الفاتيكان وانتهاء بالمسيحيين في الشرق، أن يغيروا من تخطيطاتهم، ويعيدوا النظر إلى خريطة العالم بفكر جديد يميز المواقع الدينية والمواقع اللا دينية، وأن يتركوا المواقع الأخرى لعوامل الالتحام الفكري الهادئ الممتد.
- ومع ذلك، فنحن متفائلون بالمستقبل، نحلم بأن تغيّر الكنيسة إستراتيجيتها، وبخاصة أن الأخطار تحيط بها من كل جانب، وإذا كسبت موقعًا ثانويًا خسرت مواقع أساسية في بلادها..
- اللهم إذا كانت الكنيسة ترضى بهذه المبادئ الدينية الشكلية السائدة في عالم اليوم، والتي تسمح لبعض الكنائس بمباركة زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء!!
- لماذا لا نتفاءل وكثير من علماء الفيزياء والكيمياء والحياة والجيولوجيا والنفس بدؤوا يدخلون الميدان في صفّ الدين، موجهين العلم إلى غاياته العليا ومحطمين بمنهج العلم كل استنتاجات

الإلحاد الباطلة..!!

- وقد بدأت كتابات الإلحاد على أساس العلم تتعرض لكساد، بينما أخذت في الرواج العالمي كتابات الإيمان على أساس العلم والعقل، وقد أصبحت النزعة العلمية فيها أقوى منهجًا وأكثر أصالة.
- وقد بدأ تبادل الخدمات ووسائل المساعدة يتم برواج شديد بين الدين والعلم، فكلاهما يأخذ من منهج الآخر ونتائجه، وكلاهما يعطي.
- وقد بدأ هؤلاء العاملون في حقول الدين والعلم يظهرون تواضعًا كبيرًا فيما يتعلق بنتائج أبحاثهم، ويبدون ميلا للإفادة والفهم الموضوعي لما توصل إليه الآخرون.
- إن روح العلم في طريقتها وجوهرها لا تعادي الدين، إنها روح عظيمة تستهدف إخضاع الظواهر للقوانين، أي إلى النظام، إلى الثبات في التعبير، إلى الترتيب، إلى المنطق، إلى العقل، إلى رؤية الأثر الواحد المتناسق الجميل.
- وإنه لأمر جدير بالالتفات أن ثمة قانونين أساسيين يكفيان في تفسير «الفيزياء» وهما الاحتفاظ بالدقة، ومبدأ أقل فعل[1]، فإذا كان العلم ينحو نحو الوحدة، ويجدها، فهل من التعسّف القول بأنه يتجه نحو اللّه الواحد؟!

* * *

١- إميل بروتو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ص: ٢٠٦.



الفصل الرابع

الاجتهاد وسيلة عقل المسلم لفقه الدنيا والدين

ذكرنا غير مرة أنه لا وحي بلا عقل، ولا عقل بلا وحى، وأن للوحي ثوابت ومقاصد وكليات وبعض التفصيلات الضرورية، وللعقل مساحة واسعة من الفروع الفقهية ومن المعاملات ومن فقه الكون والنظم التنفيذية الضابطة لحياة الإنسان، ومن تنسيق الحياة وتعميرها وَفْقَ الثوابت والضوابط الكلية التي شرعها اللّه!!

- وخلال مسيرة الإنسان قبل خمسة عشر قرنًا كانت حاجاته غير معقدة وتكاد تكون بسيطة، وكانت الأديان تأتي لترسم للإنسان العقيدة الصحيحة التي تصله بالله وتجعله يقدر الله حق قدره ويعبده حق عبادته، كما كانت هذه الأديان ترسم للإنسان الخطوط العامة الأخلاقية والنظمية التي تكفل له في حدود مجتمعه البسيط الحياة الكريمة، وما كان الناس عبر أكثر العصور في حاجة إلى علوم دقيقة تضع القوانين الضابطة لحركة التجارة في داخل الدول وخارجها، وتضع القوانين لكل المجالات الاقتصادية والاجتماعية المركبة والمعقدة على النحو الذي يعرفه الناس اليوم..

- ولربما كانت (دار الندوة) في عهد (قصي بن كلاب) جدّ قريش تقوم بما تقوم به وزارة العدل (الآن) في محيط مكة المحدود.

- وكان (حلف الفضول) الذي تعاهد فيه أهل مكة على أن يُنْصفوا في عاصمتهم العالمية المقدسة كل من يفد إليها ويتعرض للظلم أو العدوان... ربما كان هذا الحلف أقوى في تأثيره من منظمات حقوق الإنسان اليوم.

- فلما جاء الإسلام، كانت أمور الحياة في طريقها إلى التعقيد وكانت الحضارة على وشك أن تقفز قفزة نوعية، وقد ساعدها الإسلام على ذلك كمًّا وكيفًا، ولهذا انسجم أن يأتي الإسلام بضوابط كثيرة في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حتى يمنع الإسلام الصراع بين الطبقات، وبين العقول، وبين الدول، وبين المرأة والرجل، والفرد والمجتمع، والأب والابن، والزوجة والزوج.

– ولم يَعُدْ ممكنا أن تترك ساحة الدنيا للعقل وحده، يجتهد فيها دون حماية الوحي، ويفهم «الحرية» فهْما سائبا للدول أدى إلى أنْ تلتهم الدول القوية الدول الفقيرة والضعيفة بقوانين دولية ظالمة، وأن تفعل المرأة بجسدها ما يحلو لها، وأن يتزوج الرجل الرجل، وأن تتزوج المرأة المرأة بعقود رسمية، وتباركها الجهات الرسمية، وتدافع عنها مؤسسات حقوق الإنسان!!

* * *

الاجتهاد في فقه الدنيا:

– لقد جاء الإسلام بقوانين تمنع هذا الصدام الحضاري الذي يروّج له أقطاب النظام العالمي الجديد الآن، زاعمين أنه حتمية لا بد منها، وأن عليهم أن يسحقوا العالم الثالث والمسلمين بخاصة؛ لأن هذا من سنن الحياة، في رأيهم المغالط.

– وهذا المنحدر الذي يهوي إليه النظام العالمي المعاصر أكبر الأدلة على عظمة الإسلام وحاجة البشرية إلى عدله المطلق، وإلى مساواته العادلة بين كل الناس، مهما اختلفت أديانهم وأجناسهم وأوطانهم.

– ولن يتحقق هذا في ظل الخمود والتخلف، والكسل العقلي والتبعية الفكرية التي يعيشها أكثر المسلمين، بل لا بدّ من أن يعمل (العقل المسلم) بأقصى طاقاته، في ضوء ثوابته الإسلامية التي جاء بها الوحي الصحيح الكريم، وهذا العمل الذي سيعمله العقل المسلم بأقصى طاقاته هو ما نسمِّيه في الاصطلاح «الاجتهاد»!! وقد يفهم بعضهم لأول وهلة الاجتهاد على أنه اجتهاد في التشريعات الفقهية لكي يتابع الفقه وقائع الحياة، فيبصِّر الناس بما هو حلال وما هو حرام، لكن هذا – في الحقيقة – مجرد رافد واحد من روافد الاجتهاد، فالأصل أن يعمل العقل المسلم في (فقه الكون)، لأن

الكون هو كتاب الله المنظور، كما أن القرآن الكريم هو كتاب الله المسطور، وكلاهما يؤيد الآخر ويفسره.

- ونحن نعّد كل المبدعين في شتى العلوم النافعة، التي يحلو لبعضهم أن يسميها العلوم الدنيوية، نعّد هـؤلاء المبدعين مجتهدين، لهم ثواب المجتهدين في العلوم الشرعية، لأنهم يحققون الاجتهاد في الكون كتاب الله المنظور ويقدمون من حيث أرادوا أو لم يريدوا خدمةً لتفسير كتاب الله المسطور وفقهه أحسن الفقه.

- بل نحن نرى من هذا أن الاجتهاد في عصرنا يجب أن يكون اجتهادًا يضم المبدعين في كثير من العلوم، شرعية كانت أو فلكية أو طبيعية أو كيميائية أو طبّية أو هندسية.

- إنه لضروري أن يفتح باب الاجتهاد للجميع في ضوء تكاملية المعرفة وتعقّدها، وأيضا نرى ذلك ضرورة لإبقاء الناس في حظيرة الإيمان بالدين، بعد أن وجدنا البشرية تنحدر في ظل الإبداع الأوروبي الذي انطلق بعيدًا عن الوحي والدين.. مؤمنًا بالعقل وحده والمادة وحدها.

- ويعُدّ الاجتهاد في العلوم الشرعية، في هذه الحالة، بمثابة الأرْضية التي تقف عليها الاجتهادات الأخرى، وبمثابة الضمانات والضوابط التي تحمي الإبداع البشري من الانتحار والسقوط وتجعل منجزاته في خدمة الحياة والإنسان ومنهج الله.

وخلال القرون التي تلت ظهور الإسلام فهم المسلمون الاجتهاد بهذا المعنى الشمولي الواسع، وانطلقوا ينشرون الدين والعلم معًا في أرجاء المعمورة، ويجتهدون في فقه الكون والدنيا مؤمنين بأنهم يقومون بفرض شرعي يسمى فرض الكفاية، وبأنهم يحققون المعنى الحقيقي لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦).

– لقد فتح القرآن المجال واسعًا أمام العقل كي يتزود بالعلوم والمعارف النافعة كلها، وكان للآيات والأحاديث النبوية التي تحضّ على العلم وتجعله عبادة متوزعة بين فرض العين وفرض الكفاية، والنافلة.. أثرها في إقبال المسلمين على كل العلوم النافعة، وأصبحت كل علوم المعاش الدنيوية علومًا للمعاد الأخروي، كما أصبحت كل علوم العقيدة والشريعة والعبادات (علوم المعاد) علومًا تقود الدنيا وتزكيها وتحقق إنسانية الإنسان في إطار منهج الله القويم، وأصبح الطب وعلوم الفلك والفيزياء وغيرها من العلوم العملية والعقلية تدرّس في المساجد الكبرى جنبًا إلى جنب مع علوم العقيدة والشريعة، بل أصبح العالم المسلم متفوقًا في التفسير والتاريخ والفلسفة والطب واللغة في آن واحد.

ولأول مرة في التاريخ يأتي دين سماوي ليعمق المكانة السامية للإنسان وللعقل البشري، وفي الوقت نفسه يجعل الكون كله والحياة كلها موضوعات للبحث العلمي، ومن حق الإنسان بل من واجبه اكتشاف قوانينها وتسخيرها لنفعه، وعبادة لله أيضا، وبعد أن كان السائد في بقاع كثيرة من العالم الخضوع للظواهر الطبيعية والخوف منها، بل وعبادتها خضوعًا لهذا الخوف واتقاءً لشرها أو جلبا لنفعها... جاء الإسلام يعلم المسلمين والإنسانية أنّ الإنسان هو الأقوى والأزكى، وأن الكون كله بما فيه من قوى مرئية وغير مرئية مادة موضوعة للبحث تحت عقل الإنسان وليس – بالتالي – كونًا مخيفًا للإنسان، بل هو خلقٌ من خلق الله وقد فضّل الله الإنسان على كل المخلوقات واستخلفه في عمارة الأرض، وقد أعطى القرآن – وهو كتاب الإسلام – مفاتيح علمية كثيرة تقود هدى الإنسان للبحث والاكتشاف، وهي مفاتيح عامة وإجمالية تحرك العقل البشري ولا تكبله برؤية معينة تمنعه من البحث العلمي المحايد، ولذلك فهي مفاتيح خالية من التفضيلات، وتمثل قوانين كلية تزوِّد الباحثين في العلوم الكونية والاجتماعية بإشارات

ومعالم تدفعهم إلى الطريق الصحيح للبحث الهادف البنّاء.

ومما أورده صاحب المنار في المجلد الرابع عشر من مجلة المنار، ما نقله عن الرحالة المسلم السيد محمود سالم في مقال له جاء فيه: «قصدت في سياحاتي مدينة (بونتارليه) لمقابلة الدكتور «جدنييبة» المسلم الفرنساوي الشهير، الذي كان في السابق عضوًا في مجلس النواب، قابلته لأجل أن أسأله عن موضوع إسلامه».

فقال: إنما تتبعت كل الآيات القرآنية، التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، والتي درستها من صغري، وأعلمها جيدًا، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت لأني تيقنت أن محمدا ﷺ، أتى بالحق الصريح من قبل ألف سنة، من قبل أن يكون معلما، أو مدرسا من البشر، ولو أن كل صاحب فن من الفنون، أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداّ، كما قارنتُ أنا.. لأسْلم بلا شك، إن كان عاقلا خاليًا من الأغراض».

* * *

إن «الخوارزمي» هو إمام الرياضيات لقرون طويلة، وهو مبتكر اللوغاريتمات وعلم الجبر.. أما «الكندي» فهو الذي كان الوسيلة لمعرفة حساب التكامل والتفاضل، و«ثابت بن قرة» أدخل تعديلات جوهرية على فيثاغورث، و«البتاني» أول من أوجد جداول فلكية دقيقة، وبجهوده وجهود أبي الوفا تطورت علوم الهندسة كالتفاضل والتكامل وحساب المثلثات.

– أما «ابن الهيثم» فهو إمام علم البصريات، ويرى بعضهم أنه بدون ابن الهيثم كان من الصعب ظهور إبداعات التكنولوجيا الحديثة التي ساعدت في علوم الفضاء، وكان مؤلَّفه المشهور (كتاب المناظر) كتابًا عالميًّا بيقين في علوم الفلك وطبقات الجو.

وكان لابن سينا في العلوم الطبيعية والطب بخاصة مكانة لا تنكر ويُعّد كتاباه (الشفاء) و(القانون في الطب) من الكتب ذات التأثير الإنساني العام.

– ويقف ابن خلدون وحده رائدًا لعلمي الاجتماع (العمران) وفلسفة التاريخ، وعلى الرغم من أنّ عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨) مسبوق ببعض من اقتربوا من هذين المجالين في الحضارة الإسلامية مثل ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) وغيره فإنه يقف وحده قمة سامقة، يضعه رجل في قامة «أرنولد توينبي» في مصاف أرسطو وأفلاطون بل وسقراط، ولا يجوز أن يقارن ابن خلدون في (رأى توينبي) بأي مستوى آخر!!

* * *

لقد كانت الحضارة الإسلامية والعربية الحضارة العالمية التي تسود العالم لنحو عشرة قرون، وكانت أوربا توفد أبناءها ليتعلموا في الحواضر الإسلامية والعربية علوم الفلسفة والأدب والطبيعيات، وقد كانت «قرطبة» كما يصفها فيليب حتى، بحق (جوهرة العالم).. وحتى في الفاتيكان تتلمذ كثير منهم في الحواضر الأندلسية.. ويضاف إلى الحواضر الإسلامية الكبرى ذات الإشعاع العالمي مثل قرطبة وأشبيلية وبغداد ودمشق والقاهرة وبجاية والقيروان ولاهور، أن اللغة العربية كانت هي لغة العلوم واللغة العالمية لكل مثقفي العالم. وقد حققت انتشارًا عالميًا كاسحًا جعل الكاتب الأسباني (الفارو) يأسف أشدّ الأسف ويقول في رسالة له: «إنّ أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها»...

ويقول كاتب أوربي آخر متحسرًا:«إن لغة العرب ما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب، وقد ينظمون بها شعرًا يفوق شعر العرب

أنفسهم بالأناقة وصحة الأداء[١].. وكان من نتيجة هذه الهيمنة للغة العربية أن انتشرت مصطلحات علمية عربية كثيرة في اللغات الأوروبية، وهى مصطلحات كتبت فيها كتب كاملة ومن الصعب حصرها، ومنها الكلمات الدالة على القطن أو الحرير الغزي MUSLIN أو على الحرير الموصلي Corde Cotton أو الجلد القرطبي Damas أو الحرير الدمشقي Gause أو المسك Musk أو الجبة Jupe أو الجلد المراكشي Syrvan Morocco أو الشراب Saffron أو الزعفرانAttard أو العطر أو الأرز Rice أو الصفّة Sofa بمعنى المقعد الطويل أو الليمون Lemon أو البرتقال Orange أو السكر Sugar أو القهوة Coffee.

والمصطلحات التي بلغت في هذا العلم وحده عدة مئات من المفردات ذات الأصل العربي أنجزت حولها دراسات عديدة[٢].

* * *

– وكانت الترجمة من أكبر عوامل التفاعل الحضاري..

– ومن أشهر من قالوا بالترجمة من العربية إلى اللاتينية من العلماء الأسبان: جون (يوحنا) الإشبيلي حوالي ١١٥١ م، وإبراهام بارهيبا ١١٥٠م، ومارك الطليطلي ١٢٠٠م، ويهودا بن طبون ١١٨٠م، واسطفن السرقسطي ١٢٣٠م، وبينز كاليكو ١٢٣٠ وساليو البادوي ١٢٤٠م، وابن وحسداى ت١٢٤٠م، مائيل بن طبون (حوالي ١٢٠٠م) [٣].

ومن العلماء الإنجليز: «إيديلاداوف باث» (١١٤٢م)، ودوبرت الجستري (١١٥٠م) وألفريد السارشيلي (حوالي ١٢٠٠م)، وروبرت الإنجليزي (حوالي ١٢٧٠م).

١– عباس العقاد أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٧٠ ، ط٤ ، دار المعارف مصر.

٢–السابق، ص٦٠– ٦١.

٣– انظر مايزر: يوجين، ترجمة كاظم سعد الدين. الفكر العربي والعالم الغربي، ص ٩٥– ١١٤.

ومن العلماء الإيطاليين: أرنولد الفيلانوفي (حوالي ٢٦٠م)، وجيوفاني كامبانوس (حوالي ١٢٦٠م)، ويوحنا البريسجي (حوالي ١٢٦٣م)، وأفلاطون التيفولي (١١٥٠م)، واصطفن الأنطاكي (١١٢٨م)، وليم اللونسي (حوالي ١٢٣٠م) [1].

ومن الأسبان والفرنسيين من تخصصوا في الترجمة من العربية إلى العبرية ومن أشهرهم: سليمان بن أيوب، وشطوب بن إسحاق، وزراحيا كرشيان، وموسى بن طوبون (١٢٤٠ – ١٢٨٣ فرنسي) ويعقوب بن ماهر بن طبون (فرنسي) وفالويبموس بن ثالو نيموس (فرنسي)، وصموئيل يهودا المارسيلي، وتدرس التادرسي (فرنسي) وسليمان بن باطر (فشتالي) وإسحاق بن ناثان القطربي (أسباني).

ومن الإيطاليين نذكر ناثان هاميتي والسمو آل ابن يعقوب الكابوي، وسليمان يونابراك، وسمو آل بن سليمان هاميتي [2]، وغيرهم.

وقد ظل المسلمون يفتحون العالم بالدين والعلم معًا، وما شعروا قطّ بأن هناك انفصالا بين الجانبين، كما أنه لا انفصال بين الروح والعقل والجسد.. وكان المسجد يعلم المسلمين علوم الدين والدنيا معًا، وكان العالم المسلم يجمع بين الطب والفقه، ويبرز في التفسير والتاريخ والفلسفة، ويكتب موسوعات في تفسير القرآن وتاريخ الإسلام ومقارنة الأديان، وقد يكون أديبا وشاعرًا وفيلسوفًا، وهو في كل ذلك مؤمن بأن اجتهاده في أمور الدنيا واجب يدعم الاجتهاد في أمور الدين، ويقويه ولا يناقضه!!

فلما مضت عشرة قرون تقريبًا وهي مدة سيادة الحضارة الإسلامية على العالم بدأ المسلمون ينامون، وظهرت بينهم مفاهيم مغلوطة تدعوهم إلى ترك الدنيا والزهد فيها وترك علوم الدنيا للآخرين، يسخرون الكون،

١- انظر مايزر: المرجع السابق ١١٤-١٢٥.

٢- مايرز: الفكر العربي والعالم الغربي، ص: ١١٤ – ١١٨.

ويفلسفون الفكر، وأصبحت كثير من العلوم التي قادت المسلمين إلى النهضة هي – بعينها – علومًا تقود إلى تبديد الطاقات وتعطيل الملكات واجترار الخلافات، فأصبح علم (العقيدة) الجميلة الصافية (علم كلام) تدور الحروب فيه بين فرق كل منها يزعم أنه الفرقة الإسلامية الناجية، وأصبح (الفقه) ترفًا وتعصبًا للمذهبية، وتعطيلا للعقل والاجتهاد، وفقد (تفسير القرآن) إلا في النادر طعمه، وأصبح معارك لغوية وصراعات مذهبية، كل يحاول أن يلوي النصوص لينصر مذهبه ورأيه، وغلبت الجزئية والفرعية على العقل المسلم، وفقدت الفلسفة مجالها الصحيح وهو مجال الكون والعلوم (الفيزيقا) واشتغلت (بالميتافيزيقا) والجدال حول صفات الله، والمناطق الغيبية التي يجب أن تترك للوحي وحده لأنها فوق العقل، بينما أهملت فلسفة علوم الكون والحياة والإنسان مع أنها الفلسفة المطلوبة، بل بدونها لا يتقدم العلم، إذْ هي الوصول بالعلم إلى مرحلة الفرضيات والقوانين والتعميم.. فثمة – بالتالي – فلسفة للطبيعة، وأخرى للطب، وثالثة للاجتماع، ورابعة للتاريخ، وعن طريق الفلسفة الكونية والاجتماعية تقدمت أوربا، وعن طريق الجزئية والحرفية والفرعية الذّرية تأخر العالم الإسلامي..

أما الفلسفة المرفوضة فهي التفلسف في ذات الله، وهي منطقة سمعية لا يقوى العقل على التفلسف فيها... صحيح أننا كنا نتمنى أن لا ينبهر بعض فلاسفة الإسلام بأرسطو وأفلاطون، وأن ينطلقوا من (الفلسفة القرآنية)، و«الفلسفة الكونية» كمجال إبداع ونواميس إلهية مؤكدة لكتاب الوحي!!

– لكن منهج الإدانة بالجملة – كما يشيع بعض المسلمين اليوم للأشخاص وليس للأفكار، وبأسلوب التكفير والتأثيم، وليس بأسلوب النقد العلمي والمنهجي الهادئ – هو المنهج الذي نرفضه ونحاربه.. ولم لا يكون لهؤلاء الفلاسفة بعض العُذْر..؟!

– أليس من المحتمل أن يكون (المخطئ الأكبر) في هذه القضية هو الخليفة العباسيُّ (المأمون)، لأنه فتح باب ترجمة الفلسفات إلى العربية، ولم يقم بجهد مواز لفتح باب الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى لتقديم العقائد الإسلامية بطريقة إسلامية للبشرية المكتوية بالفلسفة الإغريقية المركّبة تارة والساذجة تارة أخرى!!

– وقد وجد الفلاسفةُ المسلمون أنفسهم أمام واقع فرضه هذا الخطأ الذي ارتكبه الخليفة المأمون... ولم يكن أمامهم إلا أن يفهموا الخصم، وأن يترجموا فكره، ويشرِّحوه ويحلِّلوه، ويبيِّنوا عواره، ويردّوا عليه، ويقدموا البديل الإسلامي بطريقة عقلية (فلسفية) ملائمة للمناهج الزاحفة..

– أجل هذه هي الحقيقة.. وهذا هو عذرهم وقد أصابوا وأخطأوا.. لكن كما يصيب ويخطئ كل الباحثين والفلاسفة!!

– وليس في الأمر لا كفر ولا إثم.. بل هناك أجرٌ للمخطئ، وأجران للمصيب، ورفضٌ للفكرة الخاطئة، وقبول للفكرة الصائبة، حتى لو كانت الفكرة – عن غير عمد – توصل إلى الكفر.. فهي فكرة جاهلية كافرة.. أمَّا صاحبها فليس كافرًا... وَحَسْبُ صاحبها أن يكون استغفر الله في أي يوم من أيام عُمره التالية أو نطق بالشهادتين!!

ولماذا لا ننظر ابتداء بعين التبرئة.. بدل الإصرار على التجريم.. تكفيرًا وتأثيمًا؟

* * *

لقد أُعْجِبْتُ أشد الإعجاب بهذا المنحى الفكري الذي انتهجه الفقيه والداعية العظيم الشيخ (نديم الجسر) مفتي طرابلس لبنان الأسبق رحمه الله وهو يعالج من خلال كتابه العظيم (قصَّة الإيمان) رحلة العقل إلى الإيمان بالله من خلال الفلسفة والعلم.. ثم القرآن..وكيف تطابقت الفلسفة الحقة والعلم الصحيح مع كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل..

وكان الكتاب منقذًا لعقلي وضميري في مواجهة موجات الحقد التي تنهال على موكب المفكرين والفلاسفة المسلمين دون تقدير لظروفهم والتحديات التي واجهوها، وأنا لا أقصد من ذلك أن نحابي على حساب الحقيقة الإسلامية وأن لا نصوب الخطأ بالحكمة والعلم والكلمة الرقيقة الودود.. حتى ولو كان اختلافنا مع هؤلاء الفلاسفة منهجيا فلا محاباة ولا خلاف في التصويب والحوار، وإنما الخلاف في الأسلوب الجارح وفي منهج التكفير والإدانة الكاملة التي تكشف عن حقد مسبق وكراهية عمياء!!

كان الشيخ الجسر – رحمه الله – طيلة كتابه يبحث عن زهور الإيمان، فيعلي من قدرها ويشيع عطرها ويقتلع أشواك الكفر ويكشف انحرافها.. حتى لدى الفلاسفة غير المسلمين.. فقضية الإيمان قضية الإنسانية عامة!!

– أنصت إلى الشيخ الجسر، وهو يدفع عن «الرازي» و«الفارابي» و «ابن سينا» تهمة ضعف الإيمان التي يتساءل عنها تلميذه ومحاوره «حيران بن الأضعف».

– إنَّ الشيخ ينفي التهمة.. ويجيب تلميذه ومحاوره قائلا: «معاذ الله يا حيران، إنهم من أعظم المؤمنين بالله، ومن أصدقهم برهانًا على وجود الله، وكيف لا يكونون كذلك، وهم كغيرهم من فلاسفة المسلمين، قد جمعوا إلى إيمان الوحي الصادق إيمان العقل السليم، نورًا على نور، ولكن هؤلاء أخذوا ببرهان الأفلاطونية الحديثة وخيالاتها في مراتب الخلق ووسائطه، واختلط عليهم الأمر فحسبوها من كلام آرسطو وحال إجلالهم للمعلم الأول، دون تمحيصها، لذلك كان على من يكتب عن هؤلاء أن يمحص أقوالهم ويميز ما فيها من الحق النير، والباطل المظلم، وهذا ما لم يفعله الذين كتبوا عنهم، إما عجزًا عن التميز، أو زهدًا في نصرة الإيمان، أو كيدًا للإيمان» [١].

١– الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص ٥٧،الطبعة الثالثة: منشورات المكتب الإسلامي لبنان.

ويتابع الرجل حديثه بشيء من التفصيل عن كل فيلسوف من هؤلاء الفلاسفة.. إنه يقول عن الرازي: «فالرازي من أصدق المؤمنين، ولو لم يكن لدينا دليل على صدق إيمانه إلا قوله: إنّ وجود العقل في بعض الكائنات الحية وقدرتها على إتقان الصنعة يدل على وجود خالق أحسن كل شيء خلقه» لكفانا [١].

وما يهمنا في حديث (الشيخ الجسر) هو هذا المنهج الكريم المنصف الذي يحترم الحياد العلمي فينقد ويفنّد ويصوِّب لكن ذلك يتمّ دون قدح أو تجريم بالجملة أو دون إغضاء عن الإيجابيات أو تضخيم للسلبيات أو تعسّف في تأويل السلبيات بحيث تخرج بها عن دائرة الاجتهاد الخاطئ إلى دائرة الرمي بالكفر الحرام أو الاتهام بالخبث والكيد العمد للإسلام والتواطؤ مع خصومه وأعدائه من الزنادقة والملحدين..!!

ولم يكن الشيخ نديم الجسر – جزاه الله خيرًا – وحده الذي يسير على هذا المنهج الودود المنصف الذي يقدر للناس بشريتهم واجتهادهم ولا يتعامل معهم على أساس أنهم لا بد أن يكونوا ملائكة معصومين!!

– بل وجدنا آخرين يمشون على نفس الدرب في التقويم البشري المنصف للناس، وعلى رأس هؤلاء سماحة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي في العديد من مؤلفاته ومحاضراته.. وغيرهم كثير.

* * *

– وأنا أتساءل: ماذا نستفيد عندما نكثر من أعداد الملاحدة والخبثاء في تاريخنا؟

– وماذا نستفيد عندما نحول فلاسفة الإسلام من مدافعين عن الإسلام ضد الغزو الإلحادي إلى جنود لهذا الغزو؟

١– السابق، ص٥٨.

- وكيف لنا أن نحكم على قلوب هؤلاء ونواياهم وأهدافهم... لمجرد أن بعضهم أخطأ في فهم بعض معالم المنهج الإسلامي، أو في بعض طرائف الاستدلال؟!!

لقد سئل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن عقيدة الخوارج الذين يحاربونه: أهم كفار؟!! فأجاب: هم من الكفر فروا.. مع أن هؤلاء الخوارج في عصر الإمام علي، كانوا أسرع الناس إلى التكفير، لكن حاشا لأمير المؤمنين العظيم علي بن أبي طالب أن ينزل إلى مستوى «الظلم» لخصومه الذين لم يجدوا وسيلة لحربه إلا حاربوه بها حتى قتلوه!!

- وما قيل عن فلاسفة الإسلام في القديم وشكَّل تيارًا باقيًا يتشبثُ به أصحابه، يقال - أيضًا - عن كثير من دعاة النهضة الإسلامية المعاصرة، وعلى رأسهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا..!!

- إن تيارًا جارفًا يتشبث بالطعن في هؤلاء، ورميهم بشتى التهم، وعدم التماس أي عذر لهم، وكأنه من المفروض أن يكونوا معصومين في فكرهم ودعوتهم وحركتهم، فلا يخطئون في اجتهاد، ولا يرتكبون أي شيء مما يرتكبه البشر، ولا يقومون بعمل - ولو واحد - يحسب عليهم... وهم إن فعلوا شيئًا من ذلك - ولا بد أن يفعلوا - فالويل لهم ولن يغفر لهم.

- لقد آن للمسلمين أن يكفوا عن هذا المنهاج القائم على الترصد كما أنه يجب عليهم بعد هذه التجارب التي مرت بهم أن يفسحوا عقولهم ونفوسهم للاجتهاد في أمور الدنيا والدين واعين بالمنهج الإسلامي الرشيد، ملتمسين الأعذار لعثرات العقول والأقلام.

وسواء كان بحثهم في علوم الدين أو علوم الدنيا، فالنيّة والغاية يجب أن يتجها إلى عبادة الله وخدمة الإنسان، وعليهم أن يلتزموا بالمعيارية الإسلامية المؤمنة بعالمي الغيب والشهادة وبالعقلانية الإسلامية التي توجب

ألا يكون هناك تناقض بين النقل الصحيح والعقل الصحيح، ولا بين شريعة الله الإلهية وحكمة الإنسان المعبرة عن جهاده في سبيل الحقيقة، وفهم السنن الكونية والاجتماعية.

***

الاجتهاد في أمور الدين:

يعّد (منهج الاجتهاد) من أبرز ميزات التفكير الإنساني العلمي.. وعندما يكون التفكير بلا منهج أو منطق معقول يصبح تعبيرًا شعريًّا ذاتيًّا غير صالح للتعميم والتقعيد وتحقيق الفائدة العامة.. ومن هنا فلا بد – إسلاميًّا– من أن يكون التفكير مرتبطًا بالمنطق والعقل.. العقل المحايد المنصف الجماعي.. المنضبط.

والاجتهاد في أمور الحياة العامة مفتوح بلا ضوابط إلا ضوابط المصلحة والمنفعة والأخلاق الإنسانية.. أما الاجتهاد الاصطلاحي المرتبط بدين – هو الإسلام – فلا بدّ من أن يكون محكوما بالنصوص الإسلامية القطعية الثبوت والدلالة.. وأن يكون مقيدًا باللغة المنضبطة بالضوابط المعجمية والمجمعية.. أي «القاموسية» المعتمدة، والمقدرة أيضًا من علماء المجامع أو اللغة.. وإلا أصبحت لغة خاصة صوفية غير قابلة للتعميم والاستعمال الاجتماعي.. فلا اجتهاد مع النص.. وإلا أصبح اجتهادًا غير إسلامي ولا اجتهاد بدون لغة مشتركة يفهمها الجميع فهمًا واضحًا وفهمًا واحدًا يحتكمون إليه ويتعاملون به. ومن البديهيات التي يؤمن بها كل مسلم أن الكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد عليه السلام، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، هما المصدران لكل جانب عقدي أو تشريعي في الإسلام. والفرق بين التصورات الإسلامية وغير الإسلامية توزن بحسب انطلاقها من هذين المصدرين أو ابتعادها عنهما، فضلا عن تلك

الاجتهادات التي لا تنطلق منها حتى وإن زعم أصحابها أنهم مجتهدون مسلمون!!

وليس من صلاحيات أي مسلم – كائنًا ما كان – أن يتعدى على أصول الإسلام الثابتة وهي القرآن وسنة الرسول ﷺ القولية والفعلية والتقريرية.

وسواء أطلق على هذا الاعتداء اسم التطوير أم المعاصرة أم التحديث، أم غير ذلك من المصطلحات، فإن هذا الاعتداء أمر منكور لا يقبله الإسلام.

وليس في الإسلام حق مقدس لفرد ما، كما لا توجد (مجامع مقدسة) تملك حق حذف النصوص أو الاعتداء على دلالاتها الظاهرة الواضحة. وكل ما عرفه المسلمون من صور الاجتهاد فإنما كان اجتهادًا قائمًا على أساس أصلي الإسلام الثابتين وفي ضوئهما، ولم يكن شيئًا إضافيًا لهما أو خروجًا عن ظلالهما وإشعاعاتهما.

– وفي تقديرنا أن هذا الفهم الواضح لطبيعة النظام الإسلامي وأصوله قضية لا يماري فيها عقل مسلم، فضلا عن فقهاء الأمة المجتهدين. وإنما مناط الخلاف هو ما سوى القرآن والسنة مما اصطلح على تسميته «بالأصول الفقهية الاجتهادية» أو «الأصول التبعيّة»!!..

وهذه الأصول تطورت وتراكمت حتى أصبحت علمًا قائمًا بذاته تدور حوله مجموعة من العلوم الفرعية. فاعتمادًا على القرآن والسنة وانطلاقًا منهما اهتدى العقل الإسلامي إلى أدوات أو أصول فقهية مؤصلة للاجتهاد ومعينة على الاستنباط الصحيح.. وهي:

١–الإجماع (وهو اتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد ﷺ في عصر من العصور على أمر من أمور الدين أو الدنيا).

٢–القياس (وهو مساواة أمر لآخر في علة حكم له شرعي لا يدرك من نصه بمجرد فهم اللغة).

٣-الاستصحاب (وهو الحكم على الشيء في زمن متأخر بما كان قد حكم به في زمن متقدم حتى يثبت دليل على تغيير الحكم لعلة طارئة).

٤-المصلحة المرسلة (وهى الوصف الذي يكون في ترتيب الحكم عليه جلب منفعة للناس أو درء مفسدة ظاهرة أو خفية عنهم).

٥-سّد الذرائع والحيل (وهى إغلاق المنافذ التي تكون في ذاتها جائزة، لكنها تؤدي إلى ممنوع شرعًا).

٦-الاستحسان (وهو العمل بأقوى الدليلين في ضوء الترجيح بين الأدلة والأقيسة واستثناء مسألة من أصل عام لاعتبارات خاصة وما إلى ذلك مما يتصل بحس المسلم وفقهه).

٧-العرف (وهو ما تلقته طباع الناس بالقبول واستقرت عليه في نفوسهم وصار عند جميعهم شائعًا قولا كان أو فعلا، بحيث لا يعارض أمرًا من أوامر القرآن أو السنة الشريفة، ومثل العرف العادة فهما شبه مترادفين).

٨-شرع من قبلنا، وهل يصلح شرعًا لنا؟

٩-فتوى الصحابي (وهل هي ملزمة أم يستأنس بها فقط ؟).

واعتمادا على الكتاب والسنة برز علم أصول الفقه - كما ذكرنا - لينمي في الفقيه المسلم ملكة الفهم الصحيح، والتعامل الموضوعي مع الأدلة الشرعية، وقد أصبح هذا العلم يمثل: (المنطق الإسلامي) كما يمثل (فلسفة التشريع الإسلامي) الذي تجلت فيه أصالة هذا الفكر وإبداعه واستقلاله.

وقد ألف فيه الإمام الشافعي كتابه العظيم (الرسالة) ثم توالى المؤلفون من أمثال أبي بكر الجصاص، وأبي زيد عبيد الله بن عمر وإمام الحرمين الجويني وأبي حامد الغزالي وتوالت المؤلفات حتى العصر الحديث.

ومع بدايات عودة الأمة إلى ذاتها ودينها وحضارتها في العصر الحديث، ظهرت أهمية الاجتهاد، ذلك الباب الذي لم يطرقه المسلمون – كما ينبغي – منذ عصور طويلة، وفي بعض بلدان العالم الإسلامي ظهرت محاولات «تقنين الشريعة» وظهرت «مجامع فقهية»، وفرض الاجتهاد نفسه كحقيقة مهمة، وتنادى مفكرو الإسلام في كل مكان إلى ضرورة الاجتهاد في الفروع، ثم أصول الفقه الاجتهادية.

والحقيقة أننا في حاجة إلى إدراك أهمية علم أصول الفقه، واعين بأن ثمة قضايا شائكة امتنع كثير من المسلمين عن الولوج فيها، بل حورب بعض العلماء الأفذاذ الذين ناقشوها بقوة وجرأة.

وما زالت هذه القضايا موضع شدّ وجذب، بيد أنها لا تقلل من ضرورة التعامل العصري الواعي مع علم أصول الفقه.. الذي يمثل – بحق – منطقنا الإسلامي وفلسفتنا الإسلامية الأصلية.

يقول الدكتور محسن عبد الحميد في حديثه عن «أزمة المثقفين تجاه الإسلام»: إن علم أصول الفقه هو فلسفة الإسلام الواقعية التي تراقب الحياة التي تتحرك فيها الخلافة الإنسانية على الأرض، كي لا تنحرف فتضلّ وتؤدي إلى فقد الموازين وضياع الفطرة وحيدة العقل بين الآراء والاجتهادات التي تفتقد إلى محور ثابت يتحاكم إليه، فهو على ذلك أفضل ما أنتجته الحضارة الإسلامية. وإن علم أصول الفقه قام بدور عظيم في ضبط حركة التغيير الاجتماعي عبر التاريخ وأعطى للحضارة الإسلامية في مناحي الحياة كافة ملامحها الواضحة.

ولقد قامت عقليات جبارة في تاريخ الإسلام باستنباط الضوابط الأصولية، والقواعد الفقهية من نصوص القرآن والسنة النبوية ابتداء من الشافعي ومرورًا بالكرخي والسرخسي ونجم الدين الطوفي وأبي الحسين البصيري وانتهاء بالباقلاني وإمام الحرمين والآمدي وابن حزم والفخر

الرازي وابن تيمية وابن القيم والشاطبي والتفتازاني وغيرهم، ولقد ضبط هؤلاء العباقرة وغيرهم هذا العلم بكلياته وجزئياته حتى ليظن الإنسان أنه لم تبق ثغرة غير مسدودة، ولا بقيت مسألة غير مطروحة.

وعلى الرغم من ضيق مجال التجديد في هذا العلم العقلي العظيم المستنبط من الوحي المعصوم، فإنني أرى أن التغير الهائل في الحياة الذي وجد في القرن العشرين وما بعده، وما يمكن أن يحدث في المستقبل ليشكل صراعًا واقعيًّا متشابكا نحتاج معه إلى إعادة النظر في بعض القضايا المتصلة بالأصول التابعة للقرآن والسنة، خاصة تلك التي يمكن أن تتحرك في اتجاهات متعددة نصل إلى نهايتها، بقدر ما يحقق هذا الأمر حل عقد الصراع الفكري الواقعي الجديد لينتقل التشريع الإسلامي من التجريد والتعطيل إلى مجال الواقع والتنفيذ.

- فمثلا: كيف نستفيد من أصل الإجماع في المؤتمرات الفقهية الإسلامية، من حيث هو كاشف في عصر ما عن مقاصد النصوص ومآلاتها ؟

- هل يمكن أن ينسخ إجماع مبني على المصلحة إجماعًا سابقًا في عصر متقدم في ضوء القاعدة الفقهية المشهورة «حيثما كانت مصلحة المسلمين فثم شرع الله» (وقد تتعدد المصالح بتجدد العصور)؟!

وما موقفنا اليوم من الأحاديث النبوية الشريفة المبنية على الأعراف التي كانت سائدة أيام الرسول ﷺ ؟ وهل من الحتم أن نتمسك بظاهرها إذا تبدل العرف، وهل يكون تحقيق العرف الجديد هو السنة باعتبار أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا ؟

ثم ما زلنا نحتاج اليوم إلى البحث العميق عن الحاجة الشديدة هل تنزل منزلة الضرورة أم لا؟ كما ذهب إلى ذلك الحنفية. ولم نزل بحاجة إلى بحث أعمق في مسألة «تخصيص عموم القرآن» بخبر الآحاد، وهي النظرية

الأصولية التي رفضها الحنفية، وما موقف الأصوليين في الوقت الحاضر من نقد السند في الحديث؟ إذ نشعر بأن المحدثين قد صبوا اهتمامهم على نقد السند وأتوا في ذلك بقواعد نفيسة جدًّا، ولم يهتموا بنقد المتن بنفس درجة اهتمامهم بنقد السند.

– وإذا كانت ظروف المجتمع الإسلامي في العصور المتأخرة قد حالت بين هذه الآراء وبين الوصول إلى مواقع متقدمة من موضوعات علم أصول الفقه.. فإن ظروف العصر المتجدد تدعونا إلى دراسة هذه الموضوعات مع إمكانية دفع تلك المسائل إلى موقعها في حركة الحياة المتغيرة المعاصرة، وأنا لا أدعو إلى فرض الآراء والقواعد مسبقًا وإنما أدعو إلى التركيز على دراسة «الأصول التبعية» لعلنا نستطيع أن نوجد قواعد وقضايا جديدة تشترك في إحياء حركة الفكر الأصولي والفقهي في الإسلام، حتى يخرج هذا الفكر من إطار النظريات المجردة إلى الوقائع الملموسة القادرة على مواجهة التطورات العلمية المعاصرة.

* * *

مصطلح الاجتهاد ونطاقه:

إذا كان للاجتهاد في اللغة معناه الذي يروج على ألسنة الناس، فإن معناه في الاصطلاح الأصولي لم يكن مقطوعًا عن المعنى اللغوي بل سيكون أكثر تحديدًا وأكثر ارتباطًا بالمجال العلمي الذي يدور فيه.

ويقصد بالاجتهاد في اللغة بذل الوسع والطاقة في طلب الشيء ليبلغ المجهود ويصل إلى النهاية، وفي حديث معاذ المشهور ترد عبارة: «أجتهد برأيي» أي أبذل وسعي في طلب الحق، وفي الاصطلاح يرى الأصوليون أن الاجتهاد هو استفراغ الفقيه الجهد والوسع لتحصيل ظن بحكم، أو علم به كما يرى الإمام الغزالي، وطريق الوصول إلى تحصيل الحكم الشرعي يكون

عن طريق بذل الجهد في إرجاع الواقعة إلى شبيه بها عن طريق «القياس» عليها أو اللجوء إلى «مقصد» من المقاصد الشرعية تندرج الواقعة تحته، أو علة مشتركة مع حكم آخر.

ويستعمل في مجال (الاجتهاد) غير (القياس) مصطلح (الرأي) ويقصد به الأصوليون رديف (الأثر)، والأثر هو النص من الكتاب أو السنة، والرأي هو الاجتهاد بالعقل على ضوء النص، وهو لا يختلف كثيرًا عن الاجتهاد، وهو أعم من القياس، والرأي منه ما هو باطل كالرأي بالهوى وبدون علم كاف ومنه ما هو مشتبه فيه، ومنه ما هو صحيح... ويتصل بمصطلح الاجتهاد أيضًا مصطلح (الفتوى) ويقصد به التنبيه والإعلام بما يشكل من الأحكام الشرعية.. والفتوى لا تكون إلا حصادًا للقدرة على الاجتهاد واستنباط الأحكام بالرأي أو القياس، فهي نتيجة لا يستحقها إلا من توافرت له شروط الأهلية للاجتهاد.

والحق أن هذه المصطلحات أقرب ما تكون إلى الترادف، وقد استعملها علماء وفقهاء كثيرون ثقات على أنها مترادفة، والفروق بينها فروق دقيقة اللهم إلا (الفتوى) فهي مصطلح مستقل، وله مدلوله الخاص.

وإذا كان القرآن والسنة الصحيحة هما مصدر الاجتهاد، وهما مرجعية كل مسلم مهما اختلفت ثقافته ودرجة وعيه، فإن الاجتهاد بالتالي يدور في تلك المنطقة التي لا تكون قطعية الثبوت قطعية الدلالة.

وقد عمد الأصوليون إلى محاولة حصر أسباب الاختلاف بين الفقهاء، ووصلوا إلى أن أهم هذه الأسباب هي:

١- الاجتهاد في معرفة المراد من النص إذا لم يكن قطعي الدلالة.

٢- الاجتهاد في دفع التعارض بين النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض.

٣- الاجتهاد في الأدلة ظنية الثبوت.

٤- الاجتهاد في أقوال الصحابة.

٥- اختلافهم فيها إذا نقل عن الصحابي رأى بخلاف ما رواه.

٦- اختلافهم في العمل بالحديث الذي خالف الأصل الفرع فيه.

٧- اختلافهم في قول الصحابي: هل هو حجة مطلقًا؟

٨- اختلافهم في الأصول الأخرى كالقياس والاستحسان واستصحاب الأصل والمصالح المرسلة وغيرها.

٩- الاجتهاد في إلحاق مسكوت عنه بمنصوص على حكمه.

٠١- تطبيق القواعد الكلية على جزئيات الوقائع.

١١- النظر في أعراف البلاد.

١٢- اختلافهم في القراءات الشاذة.

١٣- اختلافهم في خبر الواحد هو حجة أم لا؟

١٤- اختلافهم في الحديث المرسل.

ونستطيع أن نقول: إن تعدد الأماكن واتساع الدولة الإسلامية، والتعامل مع أنماط مختلفة من المدنيّة، ومحاولة التكيف أحيانًا مع الواقع والوصول إلى الحل الأيسر اعتمادًا على أنه عليه السلام ما خُير بين أمرين إلا واختار أيسرهما.. هذه البواعث كلها كانت إضافات فرضت على العقل المسلم أن يجتهد في مختلف الظروف.

وفي العصر الحديث ضغطت مشكلات كبرى، فكان لا بد من تحريك العقل المسلم تحريكًا يتواءم مع حجم التحديات وكانت المجالات الاقتصادية والطبية والاجتماعية من أهم مجالات التحدي، ففازت بكثير من الاجتهادات وظهرت في دنيا الواقع مؤسسات اقتصادية ومالية إسلامية تشرف عليها هيئات رقابية شرعية، كما ظهرت دراسات تتحدث عن الاتجاه الجماعي في

التشريع الاقتصادي الإسلامي[1]، وظهرت دراسات أخرى تقاوم النظريات الاشتراكية في المجالات الاجتماعية، ولا نستطيع أن ننكر بعامة وجود نهضة اجتهادية فقهية في العصر الحديث.

ويُعدّ الاجتهاد الجماعي المعاصر استئنافًا لعصور الازدهار التشريعي الإسلامي، فقد روى مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد ابن المسيب عن علي بن أبي طالب قال: قلت يا رسول الله، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن، ولم تمعن فيه سنة، قال: «اجمعوا له العالمين – أو قال: العابدين – من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأي واحد».

وهكذا كانت طريقة الخلفاء الراشدين؛ فقد وجدت لهم مجالس شورى عامة، بالإضافة إلى مجالس الشورى الخاصة فكانوا يجمعون في المسجد النبوي رؤساء الناس من ذوي الرأي، فيستشيرونهم في الأمور الخطيرة كما فعل عمر في جمع الصحابة للبحث في قسمة موارد العراق وغيره من الأراضي المفتوحة عنوة، وانتهى رأيهم بالاتفاق على إبقاء الأرض بيد أهلها وعدم قسمتها بين الفاتحين، ويبرز هذا المنهاج في أعمال عمر المتكررة، فكان إذا نزلت نازلة ليس فيها نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم ومما كتبه لشريح: «فإن أتاك ما ليس في كتاب الله، ولا بسنة رسول الله ﷺ فاقض بما أجمع عليه الناس»..

وطريق التشاور العلمي والاستنباط من الأدلة يعتمد على أمرين: أصول الفقه والقواعد الفقهية الكلية، والقواعد مبنية على فهم «مقاصد الشريعة، والمقاصد مبنية على اعتبار المصالح، والمصالح معتبرة من حيث وضع الشرع، لا بأهواء الناس». وهذه الشورى العلمية على النحو الجماعي أخذ بها المالكية في تعديل الأحكام الفقهية عندما يتبدل عرف الناس وتتغير مصالحهم وهي أيضًا ما يجدر أن نأخذ به في العصر الحديث، ولعل فيما

١- انظر كنموذج رسالة للدكتور محمد فاروق البنهان، بهذا العنوان، نشر مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٤هـ.

قامت به رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة من إنشاء (المجمع الفقهي) مؤشرًا على المعالم الجديدة والصحيحة لطريق الاجتهاد وكذلك «الأزهر الشريف» ومنظمة المؤتمر الإسلامي!!

* * *

الاجتهاد.. والدين الخاتم:

عندما يقول الله في القرآن الكريم: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[1].. ويقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[2].. فإن ذلك يعني من وجهة نظرنا أن الله أودع في القرآن كل الأصول والكليات والمعالم التي تكفي للسير في طريق الحياة إلى يوم القيامة ما دام الإسلام هو الدين الخاتم، شريطة أن يعمل المسلمون عقولهم بحيث تتفاعل هذه العقول مع الكليات والتوجيهات التي جاء بها القرآن الكريم صالحة إلى يوم القيامة، وهذا يعني أن الاجتهاد في كل عصر فرض، وأن تاركه أو الداعي لإغلاقه جاهل أخلد إلى الأرض!!

- إن الاجتهاد في الفقه باب فتحه الله. والباب الذي فتحه الله لا يملك أحد إغلاقه!! والفقه بدون اجتهاد هو حكم على شريعة الله بأنها غير صالحة لكل زمان ومكان، وهو تضييق على الناس يؤدي إلى تفلتهم من دين الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[3].

وقد تحول هذا الأمر إلى قواعد ضابطة، وصار من أبجديات الاجتهاد الإسلامي أن «شريعة الله كاملة مطابقة للعقل والحق والعدل، فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلته وأسفر صبحه بأي طريق كان ذلك من شرع الله ودينه، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد، ولكن

١- الأنعام: ٣٨.

٢- المائدة: ٣.

٣- الحج: ٧٨.

بيَّن أن مقصوده إقامة الحق والعدل بأي طريق كان».

إن لقضية (الاجتهاد) جذورًا تاريخية مرتبطة بدور الفقه في الحضارة، فعلم الفقه، من وجهة نظر تاريخية، هو الطابقان الاجتماعي والاقتصادي في بناء الحضارة الإسلامية، وبالتالي فإن وصول هذا العلم إلى تقديم إطار ملائم متناغم مع الجوانب الحياتية يشكل بعدًا من أبعاد قضية الحضارة الإسلامية، والمقياس في عطاء هذا العلم ينحصر في الجوانب الملحة التالية:

أ- مدى ارتباط هذا العلم بالأرضية اليقينية الإسلامية التي لا جدال في أنها خلاصة الكليات التي يمتاز بها الإسلام.

ب- مدى قيادة هذا العلم – ولا أقول مدى تعبيره – للدورة الحضارية التي تمر بها الأمة.

ج- مدى إسهام هذا العلم في تحقيق الشخصية الحضارية المتميزة وفي تقديمها للإنسانية كحضارة ذات هوية، وذات فعالية.

والذين يتتبعون الأسباب الحقيقية لبعض الاتجاهات الفقهية التي انتظمت أعلامًا أفذاذًا من أقطاب تاريخنا، سوف يكتشفون العوامل الحقيقية الحضارية التي جعلت هؤلاء الأفذاذ المجتهدين يقفون في جانب، والفقهاء المذهبيين التقليديين يقفون في جانب آخر، ومن هذه الأسباب:

- إن الفقه المذهبي قد تخطى في بعض الحالات دوره في البناء الاجتماعي والاقتصادي المعاش المنظور ليصبح عقيدة وهيكلا أيديولوجيًّا يضفى على الأصول الاعتقادية والفكرية. لقد تحول الرأي إلى عقيدة، وتقدمت النافلةُ الفرضَ والفرعُ الأصلَ.

- إن بعض الفقهاء، في بعض العصور، فرضوا آراءهم الفرعية بصورة ليست من طبيعة الإسلام، فانقلبوا من حارس للبناء الاجتماعي والاقتصادي

إلى تابع للأوضاع المختلفة التي يحركها البناء السياسي، يعطونها التبرير الجدلي، ويلوون أعناق النصوص من أجلها ومن أجل تسويغها.

ومقام الاجتهاد – اليوم – لم يعد مقام هذه الفتاوى الجزئية التي يستطيع أن يتصدى لها آلاف الفقهاء، إن التحدي أكبر من ذلك، فأبنية المسلمين الاقتصادية والاجتماعية في ظل عالمنا المركب تحتاج إلى (مجامع فقهية) وإلى صور متكاملة من الاجتهاد الجماعي الذي يستطيع أعضاؤه صياغة حياتنا صياغة إسلامية معاصرة، ومنح حياتنا البديل الإسلامي الكامل، في شتى الجوانب الفقهية اقتصادية كانت أو اجتماعية، وبما أن عصرنا عصر مؤسسات فمن الضروري أن تنشأ مؤسسات فقهية قادرة على مواجهة العصر، حتى لا تغزونا الأفكار التشريعية والنظم الاقتصادية والاجتماعية المدمرة، والاجتهاد هو سلاحنا الأكبر في معركة التحدي، ومن هنا استحق أن نوليه الاهتمام الكبير.

اضمحلال الاجتهاد في بعض العصور:

لم يخلُ عصر من العصور من مجتهدين.. حتى ولو كانوا مجتهدين مقيدين بمذهب، لكن مع الاعتراف بهذه الحقيقة، وُجدت عوامل تاريخية كانت سببًا في اضمحلال الفكر الإسلامي بعامة والاجتهاد الفقهي بصفة خاصة..!!

لقد خضع الفكر الإسلامي لما خضعت له سائر العلوم، فمع جنوح الأمة الإسلامية إلى الكسل العقلي والدخول في عصر الحواشي غير المفيدة إلا فيما ندر، أصاب الفقه الإسلامي الجمود الذي مس بقية نشاط العقل المسلم، وبالتالي فإن التخلف الحضاري للأمة الإسلامية هو أبرز أسباب تخلف الفقه وتوقف الاجتهاد. ويضاف إلى هذا السبب الرئيسي أسباب أخرى حصرها العلماء فيما يلي:

١- تدوين المذاهب، فقد تم تدوين الفقه فسجل علماء كل مذهب اجتهادات الأئمة في الحوادث التي أفتوا فيها واعتقد العلماء أن ما دونه كاف لسد حاجة المسلمين، فوقفوا أنفسهم على ما بأيديهم من كتب الأئمة المجتهدين.

٢- التعصب المذهبي، فقد التزم كل عالم من العلماء مذهبًا خاصًّا وقف نفسه لدراسة أصوله وترتيب فروعه، ودعوة الناس إلى المذهب الذي اختاره واعتقاد الحق فيما جاء به وحده، وقد غالى بعضهم في هذا، فقد نسب إلى أبي الحسن الكرخي قوله: «كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ...»، وهي مبالغة شديدة لا يقرها واقع الفقه الإسلامي.

٣- وقد زاد من تعطيل عجلة الاجتهاد أن العديد من كتب علماء المذاهب مليئة بالتهجم على أئمة المذاهب الأخرى، نجد نماذج من ذلك عند الغزالي في كتابه (المنخول)، والجصاص الحنفي في كتابه (أحكام القرآن)، وابن حزم الأندلسي في كتابه (المحلى) وغيرهم..

٤- وكان من أسباب ازدياد الصراع بين المذاهب أن القضاة في بعض العصور كانوا يعينون للقضاء على مذهب معين يلتزمونه في أحكامهم، ولا يجوز لهم الخروج على منصوصات علمائه، وكان التعصب المذهبي والاستشهاد بذلك من عوامل تقييم الفقيه وتزكيته.

٥- شيوع التخوف بين العلماء في تلك العصور، مما جعل الكثير منهم يحجم عن الاجتهاد خوفًا من أن يكيد له أعداؤه ويرموه بالابتداع، فوقف عند أقوال الأئمة المتقدمين.

هذا بالإضافة إلى شيوع عوامل الكسل والفتور التي عادة ما تصاحب قرون التخلف.

بيد أننا، كما ذكرنا، نحمد الله على وجود نهضة اجتهادية في العصر الحديث، ولعل الاجتهاد الجماعي يمثل أعلى ما فيها، ولعله يتطور فتصبح في كل قطر جماعة اجتهادية جماعية، ويصبح هناك مجلس إسلامي يمثل المسلمين جميعًا في تقديم الآراء التي تصلح لكل البيئات والظروف والأكثريات والأقليات.

الاجتهاد مفتوح.. ولم يغلق بابه قط:

شاع بين عامة المسلمين، وربما بين بعض مثقفيهم، أن باب الاجتهاد قد أغلق، وأن الحضارة الإسلامية قد أصبحت عاجزة عن مواجهة العصور، حاشا لله !!.

ومصدر الخطأ في هذه الفكرة أن القائلين بها لم يفرقوا بين الاجتهاد الذي يصل بصاحبه إلى تكوين (مذهب فقهي) وبين (الاجتهاد الحر) الذي يجد صاحبه نفسه يلتقي مع مذهب من المذاهب، حتى دون أن يقصده، وحتى دون أن يكبل خطواته مسبقًا.

- نعم، لقد كانت المذاهب اكتملت، فتوقف الوصول إلى (مذهبية فقهية تكاملية) ليس عن عقم أو عجز، ولكن لأن طبيعة الفتوى المتأرجحة بين الحل والتحريم والكراهة قد انتظمتها المذاهب السابقة، فالالتقاء مع واحد منها نهاية حتمية.. أما الاجتهاد الحر وأما ظهور نوابغ مجتهدين فقد استمرا في حضارتنا ولم ينقطعا أبدًا، وكيف يقال بالانقطاع وابن حزم الأندلسي قد ظهر في القرن الخامس الهجري (توفى ٤٥٦هـ)؟

وكيف يقال بالانقطاع وقد شهدت القرون - بعد الرابع - أعلامًا كثيرين يعدون بالمئات كانت لهم اجتهاداتهم الخطيرة من أمثال شمس الأئمة الحلواني إمام أهل بخارى وصاحب المبسوط (ت ٤٤٨هـ) والسرخسي شمس الأئمة (٥٠٠هـ) والإمام أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) والإمام

الرافعي (ت ٦٢٣هـ) وأبي الفرج بن الجوزي (ت٥٩٦ هـ) وعبد الله العبادي صاحب الفروق (ت ٦٣٠هـ) والبغدادي سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ) وابن الحاجب (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) وأبي الفضل بن رشد (ت ٦٧٥هـ) وأبي الفتح القشيري (ت ٧٠٢هـ) وأبي الحسن الآمدي (ت ٦٣١هـ) والعز ابن عبد السلام سلطان العلماء (ت ٦٦٠هـ) والإمام النووي (ت ٦٧٦هـ) والإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) وتلميذه ابن القيم صاحب أعلام الموقعين، ونجم الدين الطوخي (٧١٦هـ) وشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ).. وابن حجر العسقلاني شارح البخاري، وتلميذه السيوطي صاحب (الردّ على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض) وتستمر حلقات المجتهدين حتى تصل إلى القرون الأخيرة، فنجد الزبيدي الهندي، وولى الله الدهلوي الهندي، والإمام الشوكاني والصنعاني وابن باديس الجزائري والدرديري والعدوي، والشيخ الشرقاوي، والإمام محمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا والشيخ شلتوت، والإمام محمد أبو زهرة والشيخ المودودي وأبو الحسن الندوي والشيخ عبد العزيز ابن باز والشيخ ناصر الدين الألباني، والشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق.. وغيرهم.

إن هذه المسيرة تفيدنا أن الاجتهاد الإسلامي باب لا يمكن أن ينقطع أو يغلق بإذن الله.. وهو من الأدلة الكبرى على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.. وصدق الله العظيم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1].

* * *

١- سورة سبأ الآية (٢٨).



الفصل الخامس

شواهد من تاريخ التعاون بين الأمراء والعلماء

(١)

التعاون بين أولي الأمر والعلماء هو الأصل في حضارتنا:

أعتقد أنني لن أكون مبالغًا حين أقول: إن كثيرًا من الخلفاء الأمويين والعباسيين قد ظلموا، وإن كثيرًا منهم كانوا -في الحقيقة- خلفاء صالحين، يتعاونون مع أهل العلم والدعوة والورع تعاونا كاملا. وإنني أعتقد أنه من الواجب عبور كثير من هذه الفترات الصالحة، لأن أصل العلاقة فيها كان قائمًا على التعاون بين أهل السياسة وأهل الدعوة والفقه والعلم؛ ولهذا فإنني أتجاوز بعض الخلفاء العظماء المشهورين من آل العباس من أمثال محمد المهدي، وهارون الرشيد، لأن إبراز هذه المعاني عند هؤلاء هو من باب تأكيد المعروف المتفق عليه بين المنصفين.

كما أنني عمدت إلى تجاوز العصور المزدهرة غالبًا حتى لا يُحتج بأنني ركزت على المشهورين الذين يمثلون - في رأي المتحيزين ضد تاريخنا - الشذوذ والاستثناء. ولهذا الالتزام - كذلك- فإنني لا أرى الوقوف عند عمر بن عبد العزيز حين يكون الحديث عن بني أمية، وأيضًا لا أقف عند محمد المعتصم العباسي (٨٣٣ - ٨٤٢م) صاحب عمورية العظيم، ولا أرى الوقوف عند هارون الواثق، أو جعفر المتوكل الذي قاوم حركة ظلم الاعتزال، وأنهى الظلم الذي وقع على أهل السنة.

وسأقدم نموذجين من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) استغرق حكمهما نحو ستين سنة، وهذا القرن الخامس- كما هو معروف - من القرون التي تحسب من عهود ضعف الدولة العباسية..

في هذه الفترة كان الخليفة في بغداد المقتدي بأمر الله العباسي الذي حكم عقدين من الزمان (٤٦٧ - ٤٨٧هـ) أحد خليفتين حكما في النصف الثاني من القرن الخامس. ويكاد يجمع المؤرخون على أن المقتدي كان

يتمتع بأخلاق طيبة، وأن من صفاته حبه للدين والخير، وكانت نفسه قوية، وهمته عالية، وذا شجاعة وشهامة، وكل أيامه خير وبركة، حسن السيرة والسريرة[١].

ويصفه ابن كثير – أيضًا- بأن فضائله عالية، وغيرته على حريم الناس لا تضاهى، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويمتاز بالعدل والصلاح والتقوى ولين الجانب وكثرة العلم[٢].

وكان المقتدي حريصًا على أخلاق الناس ودينهم؛ ولذلك عمل منذ خلافته على تطهير بغداد من عناصر الفساد والفجور، وخرب الخمارات، ودور الزواني والمغاني[٣]. وقد تابع التطهير كلما ظهر ما يوجبه[٤].

وكانت المدارس الفقهية هي الظاهرة اللافتة للنظر؛ لأنها تعكس تطور الحركة الفقهية وعلم الحديث والتفسير والآداب واللغة؛ باعتبارها مواد التدريس التي يتلقاها طلاب هذه المدارس، وكان انتشار المدارس بمدينة بغداد في عصر السلاجقة هو الحدث الأكبر والأهم الذي حققته الحضارة الإسلامية، وتعد بحق قفزة في سلم التطور العلمي بعد أن كان التدريس محصورًا في المساجد وبعض الكتاتيب. وقد أنشئت المدارس لخدمة المذاهب الفقهية ولتغذية أجهزة الدولة بالقدرات العلمية اللازمة[٥].

وقد احتل الفقهاء ورجال العلم منزلة رفيعة في المجتمع الإسلامي بمدينة بغداد في أيام المقتدي بالله العباسي، وأسهموا في معظم الأحداث التي شهدتها المدينة الخالدة (بغداد)، وازدهرت في هذه المرحلة مذاهب الفقه

١- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٦ ،طبعة بيروت.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية ١٤٦/١٢ ،دار صادر بيروت.

٣- محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٦، دار النفائس بيروت، ط١/١٤٠٤هـ.

٤- ابن كثير: البداية والنهاية: ١١١/١٢ .

٥- ابن الأثير المكان السابق، ص: ٥٣٥ والمرجع السابق، ص: ١٨٧.

السنية الثلاثة: مذهب الإمـام أحمد بن حنبل ومذهب الإمـام الشافعي ومذهب الإمام أبي حنيفة[1].

أما الخليفة المستظهر أبو العباس أحمد بن المقتدي فقد حكم بين سنتي (٤٧٠ و ٥١٢هـ)، ويصفه المؤرخون بأنه لين الجانب، كريم الأخلاق يحب اصطناع الناس، ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات[2]، وكان مؤثرًا للإحسان، حافظًا للقرآن، محبًا للعلم، منكرًا للظلم، وكان مشكور المساعي، لم يرد مكرمة تطلب منه، وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغ إلى سعاية ساع، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلوث وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض[3]، ناهيًا عن قصد الجور والاعتساف، سمحًا جوادًا، هينا لينًا، حسن المعشر، قد حسن الله خلقه وخُلُقه، وبره وأدبه، نقش خاتمه «ثقتي بالله وحده»، يحب العلماء والصلحاء، كبير الهمة، سهل العريكة، وكانت أيامه أيام سرور للرعية، فكأنها من حسنها أعياد، وكان حسن الخط، جيد التوقيعات[4].

وقد تميزت العلاقة بين المذاهب الإسلامية في عهد المستظهر بالصلح، والمودة، والاحترام، وهذا كان بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها الخليفة في معاملة عامة الناس. ويعد عهد المستظهر من أزهى العهود التي عرفها أهل الذمة ببغداد؛ لأن المستظهر حرص على معاملتهم بالحسنى وقرَّب زعماءهم.

١- محمد حسين شندب: المرجع السابق، ص٦٠، ٦١

٢- عز الدين أبو الحسن بن الأثير: الكامل،ص٥٣٥، طبعة دار صادر، بيروت. وانظر محمد حسين شندب، المرجع السابق،٨٥، ٨٦ .

٣- ابن الأثير: المرجع السابق، ص ٥٣٥، والمرجع السابق، ص: ١٨٧ .

٤- ابن الاثير: ٥٢٦/١٠، وانظر ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٨٢٩٤، حيدر آباد - الهند- سنة ١٣٥٨هـ .

(٢)

صور من التعاون في العصر الأيوبي:

بوفاة عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ، فقد المسلمون عَلَما فذا قاوم الصليبيين بضراوة وعمل على توحيد المسلمين وجمع كلمتهم، لكنهم سرعان ما وجدوا أن بذوره الصالحة قد تركت وراءها ابنًا كريمًا من أبنائه هو نور الدين محمود الذي كان في الثلاثين من عمره حين مات أبوه.. فشق طريقه ليحمل الراية الإسلامية ومضى يؤدي الرسالة بالمستوى نفسه الذي كان عليه أبوه رحمه الله.

كان لنور الدين فضل في صد الحملة الصليبية الثانية، والقضاء على الخونة الذين تواطؤوا مع الصليبين، كما قضى على الخونة من أمثال الخبيث «معين الدين أنر»، وضم نور الدين دمشق إلى الجبهة الإسلامية، كما أن ضم مصر إلى تلك الجبهة يُعد مأثرة من مآثره.

وقد سار صلاح الدين على الدرب نفسه الذي سار عليه عماد الدين زنكي ونور الدين محمود، فقام بتوحيد الشرق الإسلامي، وضم دمشق، بعد وفاة نور الدين، إلى مصر مع كثير من بلاد الشام، كما فتح أخوه توران شاه بلاد اليمن، وبعد ذلك نجح صلاح الدين في ضم حلب والجزيرة والموصل، وبذلك يكون صلاح الدين قد ضم الأقطار الإسلامية في نظام اتحادي يمكنه من إعلان الجهاد ضد الصليبين، كما أمن الخطوط الخلفية لنشاطه العسكري وضمن موارد عسكرية وبشرية وتموينية كافية لقتال الأعداء[١].

ولم يلبث صلاح الدين أن هاجم المناطق والمدن التي كان الصليبيون قد احتلوها، وأسسوا فيها إمارات مضى على قيامها نحو قرن من الزمان، فانتصر في موقعة «مرج عيون» في لبنان سنة ٥٧٥هـ، واستولى في السنة

١- د.عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، ص ١١٣٨ طبع بيروت.

نفسها على حصن الأحـزان وأسر من فيه، وحطم مغامرة «أرنـاط» في الاستيلاء على الحجاز.

وفي سنة ٥٨٣هـ زحف صلاح الدين على رأس جيش إسلامي كبير سار به من دمشق، استولى على حصن الكرك وطبرية، وهناك قريبًا من طبرية دارت رحى معركة (حطين) الخالدة (٥٨٣هـ) بين جيش المسلمين الموحد وبين الجيوش الصليبية بقيادة ملك القدس وأمراء صور، وعكا والناصرة، والكرك.. وكانت معركة حاسمة انتصر فيها السلطان صلاح الدين، وأنـزل بالفرنج هزيمة ساحقة[1]، وأسر ملك القدس «لوزينان» والمغامر «أرناط» حاكم الكرك، ومعظم قواد الجيش و(١٤) ألف جندي وقتل منهم (٩) آلاف.

وقد واصل صلاح الدين بطل الوحدة الإسلامية المنتصر زحفه على عكا، وصيدا، ويافا، وبيروت، ونابلس، والرملة، ودخل القدس ظافرًا في رجب سنة ٥٨٣هـ، وكانت تلك نهاية عظيمة لمسيرة التوحد التي بدأت بعماد الدين زنكي.

وجدير بالذكر أن عددًا من الدعاة والعلماء قد وقفوا مع هؤلاء الأبطال الثلاثة (زنكي، ونور الدين، وصلاح الدين)، وكان على رأس هؤلاء المؤرخ بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن شداد (٥٣٩ – ٦٣٢ هـ/ ١٤٤٥ – ١٢٣٤م)، والفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري (ت٥٨٥ هـ)، والمؤرخ المعروف عبد الله بن محمد الأصفهاني المعروف بالعماد الكاتب (٥١٩-٥٧٩هـ/١١٢٥-١٢٠٠م) الذي كان قلمه، كما يصفه المؤرخون، أشد وأنكى على الصليبيين من سيوف المجاهدين؛ إذ به جمع صلاح الدين عساكر المسلمين، وبأسلوبه البليغ المؤثر ألف بين قلوبهم، وحبب الاستشهاد إلى نفوسهم، وآية ذلك قوله: «وكان يأمرني بإجابة كتب الملوك في حالتي

١- المرجع السابق.

سلمهم وحربهم، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي»، وشهد مؤرخو الغرب للعماد الأصفهاني بالصفات الحميدة، ووصفوه بالتدين ونبل الخُلق[١].

ويعد أبو علي محيي الدين بن على البياني العسقلاني (٥٢٦-٥٩٦هـ/١١٣٥-١١٩٩م)، المعروف بالقاضي الفاضل من أشهر من وقفوا مع صلاح الدين الأيوبي في ميدان التعاون على صلاح الدين والدنيا وتحقيق النصر، وكان القاضي الفاضل يتميز بأنه موضع ثقة صلاح الدين ومستشاره الأمين، ومن ذلك ما يروى من أن صلاح الدين كتب إلى القاضي الفاضل وهو على حصار عكا ١١٩٠م يشكو إليه مسلك أمراء المسلمين معه، وضجرهم من طول الإقامة للجهاد، فرد عليه القاضي الفاضل ناصحًا بسعة الصدر معهم، ورأى أن يكون إلى جوار صلاح الدين ناصحًا ومشيرًا ومسكنًا لثورة الأمراء، فغادر القاهرة فورًا وعاد إلى عكا فوصلها في يناير سنة ١١٩١م. ولم تكن تلك المشورة مقصورة على شؤون الدولة والحكم، بل تعدتها إلى شؤون صلاح الدين الخاصة، منها أن صلاح الدين عزم على الحج والزيارة بعد عقد صلح الرملة (٥٨٨هـ = ١١٩٢م)، فأشار عليه القاضي الفاضل بتأجيل ذلك إلى سنة أخرى لأسباب عرضها عليه، مؤيدًا إقناعه بفتوى دينية نصها: «إن الانقطاع لكشف مظالم الخلق أهم من كل ما يتقرب به إلى الله»[٢].

ومن هذه النماذج -وغيرها كثير جدًا- يتأكد لنا أن التعاون كان كاملا بين العلماء ورجال الدعوة والفكر وبين الأمراء والقادة، وكانت نتيجة هذا التعاون الانتصارات المعروفة التي حققها الأبطال الثلاثة عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، رضي الله عن الجميع وجزاهم

١- نظير حسان سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي،ص: ٢٧، مكتبة النهضة المصرية١٩٦٢م.

٢- المصدر السابق، ص ٣١ :٣٢ .

عن الإسلام خيرًا.

ومن هذا يتجلى أن التعاون الإسلامي والإنساني بين قيادات الأمة.. هو طريق التمكين في الأرض ونشر الأصالة الإسلامية القائمة على ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.(١)

(٣)

التكامل بين الساسة والدعاة في العصرين المملوكي والعثماني:

يؤكد كثير من المؤرخين الثقات أن الشريعة الإسلامية كانت هي المصدر الوحيد للتشريع والقضاء في العصر المملوكي، وكان الفقهاء هم القائمين على حراستها والاستنباط منها. ويوضح لنا الأستاذ حنفي محمود خطاب ما كان للعلماء من سطوة ونفوذ في الدولة المملوكية بصفة عامة فيقول: «إن الدين كان منبع القانون بين الناس، وكان سلاطين المماليك لا يعرفون بأحكام الشريعة الإسلامية، أو وسائل تطبيق تلك الأحكام؛ لأنهم عاشوا عيشة عسكرية منذ نشأتهم، ولم يعرفوا من شؤون الدين سوى ما تلقوه من مبادئه الأولى في شبابهم الأول بثكنات القلعة وطباقها، وكان من الطبيعي أن يترك المماليك لرجال الدين تلك الناحية من شؤون الدولة»(٢).

وقد برز من علماء الإسلام في هذا العصر كثيرون على رأسهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (سنة٦٦٠هـ)، وتقي الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز قاضي قضاة الشافعية (سنة ٦٥٤هـ)، وهو صاحب مواقف مشهورة، وشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية(٧٢٨هـ)، وهو أشهر من أن نقف عنده!!.

وكانت مكانة علماء الإسلام بارزة على المستويين الشعبي والرسمي،

١- الأنبياء:١٠٧.

٢- حنفي خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى (رسالة ماجيستير، ١٩٤٣م، جامعة القاهرة)، ص١٢١.

فلم تكن تتم بيعة الخليفة أو السلطان إلا بحضورهم. وقد وقف العلماء وقفات مشرفة وجريئة ضد السلاطين، ورفضوا الإفتاء على هواهم ورغباتهم: كما فعلوا مع السلطان الظاهر برقوق عندما شكا لهم بأن الخزائن خالية من الأموال، والعدو (المغول) زاحف على البلاد، وأنه يريد أخذ نفقة العسكر من مال الأوقاف المرصدة للجوامع والمدارس، فلم يوافقوا على ذلك، بل أكثر من ذلك أغلظوا على السلطان القول، لكن لما طال الأمر اتفقوا مع السلطان بأن يؤخذ من مال الأوقاف وخراج الأراضي سنة كاملة فقط، وتبقى الأوقاف على حالها، وهذا يُعد ثباتا على الدين وقيمه من قِبَل العلماء، كما كان لهم دور كبير في الأزمات وعند وقوع البلاء[1].

وقد حظي العلماء بمكانة كبيرة في عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق (٧٨٤ – ٧٩١هـ) فقد كان يوقرهم ويحبهم، ويقوم للفقهاء إذا دخلوا عليه.. وحتى هؤلاء الذين أخطأ في حقهم مثل الشيخ شهاب الدين الشافعي؛ الذي ما أن وصل إلى علمه أنه كثير الورع والزهد حتى أرسل خلفه واعتذر إليه، ومن ثم أعاده إلى بلده مكرمًا[2].

وفي عهد السلطان المملوكي المؤيد شيخ (٨١٥ – ٨٢٤هـ) ارتفعت مكانة العلماء؛ لأن السلطان نفسه كان متدينًا، وكان يحب الدين وينقاد للشرع في جميع أموره وأحواله، يدلنا على ذلك أن السلطان نفسه كان يخرج وقت الأزمات واشتداد البلاء وهو لابس جبة صوف بيضاء، وعلى رأسه عمامة صغيرة، متجردًا من جميع ملابسه السلطانية الفاخرة، ويخرج وبصحبته الخليفة والقضاة وسائر العلماء، ثم يصلي من غير سجادة، ويمرغ وجهه في التراب، ويبكي تضرعًا لله تعالى[3].

١- شريفة المنديل: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الثانية (رسالة ماجيستير، كلية الآداب للبنات في الرياض، ١٤٠٩هـ) ص١١٧.

٢- المرجع السابق.

٣- ابن إياس محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص٤٦، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٤٠٣هـ.

وقد كان للعلماء كلمة مسموعة وأمر نافذ لدى السلطان عند استشارته لهم في أي أمر؛ فعندما اجتمع السلطان بهم عام٨٧١هـ (١٤١٨م) واستشارهم في أمر قتال يوسف، أفتوا بجواز قتاله نتيجة لسوء أفعاله وسوء سيرته، فما كان من السلطان شيخ إلا أن أسرع في تجهيز العسكر تنفيذا لذلك[١].

وكان السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ – ٨٤١هـ) منقادًا للشرع يحب الفقهاء ويقربهم.. وكانت له ثقة بالقاضي عبد الله بن عبد الباسط فكان منقادًا كما ينقاد الطفل إلى أبيه.. وله كلمة مسموعة لديه؛ يدلنا على ذلك انه عندما تضرر الناس بسبب أمر السلطان بعدم زراعة قصب السكر إلا للسلطان فقط؛ تكلم معه القاضي عبد الله بن عبد الباسط في ذلك فعندئذ أذن للناس في زراعته[٢].

وكان للعلماء دورهم في توجيه السلطان إذا أخطا في الاجتهاد؛ فمن ذلك أنه لمَّا وقع الطاعون الكبير في الديار المصرية والذي سمي فيما بعد (بالفصل الكبير) لأنه انتشر في جميع نواحي بلاد العالم، فلما رأى السلطان ذلك اجتمع بالخليفة، والقضاة الأربعة ومشايخ العلم، واستفتاهم في ذلك، وقال: أخرج أنا والناس إلى الصحراء ونستسقي هناك، فعارضه أحد العلماء في ذلك وقال له: إن ذلك ليس من فعل السلف، وإنما ذلك من سوء أفعال الناس وفتنتهم، حيث يبعثه الله تعالى عقوبة لهم على ذلك[٣]، وقالوا للسلطان: إنه لا بد من أن يمنع المظالم التي كثرت في البلاد، ويبطل المكوس، ويمنع خروج النساء وهن متزينات إلى الأسواق، كما يأمر الناس بكثرة الدعاء والاستغفار؛ وانفض المجلس على ذلك، وعمل السلطان بكل ما قرره معهم. وقد كان السلطان يستشيرهم في كثير من أموره التي يعجز أن

١- المصدر السابق،٢/٣٩-٤٠ وانظر : شريفة المنديل : مرجع سابق، ص١٢٥.

٢- ابن إياس، ص: ١٥٣ وشريفة المنديل،ص١٢٦.

٣- المقريزي: السلوك، مجلد٤، ص:١٠٢١ (نقلاً عن شريفة المنديل: مرجع سابق،ص١٢٧).

يجد حلا فيها، حيث يجد عندهم الحل الكافي والجواب الشافي، كما فعل عند استشارتهم في أمر زكاة الأموال الظاهرة والباطنة للناس.

وكان السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ -٨٥٧هـ) يكثر من فعل الخير والبر، شديد التدين، وقد بشر الصالحين بسلطنته.. ولقي العلماء في عهده كل حظوة وتقدير واهتمام، وكان يسعى لتطييب خاطرهم ويرضيهم بشتى الوسائل؛ من ذلك ما وقع بين قاضي القضاة سعد الدسيري، قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر من تشاجر، وما أدى إليه ذلك من عزل القاضي ابن حجر نفسه عن القضاء، فسعى السلطان إلى تطييب خاطره، فأعاده إلى منصبه، وخلع عليه وأكرمه. وكان يهتم بالعلم والعلماء، ويحضر الحفلات التي يقومون بها من أجل ذلك، ومن ذلك حضوره لحفلة قام بها شهاب الدين بن حجر بسبب انتهائه من تأليف كتاب (فتح الباري في شرح البخاري)[١]، وقد كان أكثر السلاطين المماليك يخضعون لشروط بعض القضاة مما يدل على مدى المكانة الكبيرة التي وصلوا إليها، لدرجة أنهم وصلوا إلى الاشتراط على السلاطين[٢]. وفي عهد السلطان قنصوه الغوري (ت:٩٢٢هـ) عارض العلماء رغبته في أخذ أموال الأوقاف وإنفاقها على الأمراء والمماليك.

وحدثت واقعة عجيبة للعلماء عامة والقضاة بشكل خاص، وهي أنهم عزلوا جميعًا بسبب معارضتهم لرأي السلطان في مسألة شرعية، فغضب السلطان منهم وعزلهم جميعًا في وقت واحد، حتى إن مصر بقيت حوالي خمسة عشر يومًا لم يعقد فيها نكاح ولا وقع فيها أي حكم من أحكام الشريعة[٣]، وتدلنا الحادثة على مدى جرأة العلماء، وقوتهم في مواجهة الظلم والخطأ، حتى ولو كان ذلك سببا لعزلهم وإقصائهم عن وظائفهم. ولم ينقص ذلك كله

١-ابن إياس: المصدر السابق ٢٠٧/٢، وشريفة النديل ١٣٠.

٢- شريفة المنديل، مرجع سابق، ص: ١٣١ .

٣- المرجع السابق، ص: ١٣٨ ،١٣٩.

من مدى عزمهم وقوتهم وقدرتهم، وزادت قيمتهم عند الناس والأمراء.

وقد كان لهم الدور الكبير الفعال في تولي السلطان طومان باي؛ فعندما قتل السلطان الغوري عام ٩٢٢هـ(١٥١٦م) وقع اختيار الأمراء على سلطنته فامتنع من ذلك غاية الامتناع ولكن الأمراء ألحوا عليه، وأجبروه بحجة أنه ليس هناك سلطان غيره، فوافقهم وخاصة بعد أن ضغط عليه الشيخ أبو السعود الجارحي، الذي أتى بالمصحف وحلف الأمراء عليه، على أنه إذا تسلطن الأمير طومان باي لا يغدرونه ولا يخامرون عليه ولا يطالبونه بنفقة، وينتهون عن مظالم المسلمين فحلفوا على ذلك، وانتهى الأمر بسلطنة طومان باي على ذلك[1]. وقد بقي الأمر بين طومان والعلماء على هذا العهد، لكن عهد طومان باي لم يستمر إلا سنة واحدة، فقد استولى العثمانيون على مصر سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م، وحملوا الراية.. لكن العلماء -على أي حال وكما تدلنا الوقائع السابقة – كان لهم وجودهم الشرعي، وقد أدوا واجبهم في صياغة المجتمع صياغة إسلامية.

وقد كان العثمانيون – في أصلهم- قبائل تركية فرت من بلاد آسيا الوسطى أمام الزحف المغولي، وقد أسلم جدهم (عثمان طغرل) واستوطن وأتباعه بلاد الأناضول، ومن ثم نجح في تشكيل دولة تنسب إليه، فاتخذ مدينة (قره حصار) قاعدة له، واستقل بدولته بعد مداهمة المغول للسلاجقة، وأصبح ملاذ الكثير من المسلمين الذين يفرون من وجه التتار؛ خاصة أنه أول من اعتنق الإسلام من أمراء قومه، ولهذا انتسب إليه الخلفاء من بعده، وهذا يعد دلالة على ارتباطهم بالإسلام وليس بالعصبية، وتوفي في سنة ٧٢٧هـ، وكان خلفاؤه من بعده يأخذون على عاتقهم جهاد البيزنطيين. ولقد تقدم العثمانيون في أوربا وفتحوا مناطق واسعة، وأخيرًا تمكن محمد الثاني من فتح مدينة القسطنطينية عام ٨٥٧هـ، وغدا اسمها (إسلام بول)

١- المرجع السابق نفسه.

ويُطلق عليها الآن (إستانبول)[1]، ولم يكن انتصار الفاتح محمد الثاني في القسطنطينية هو أول نصر كبير يحرزه آل عثمان؛ ولكن (الرمز) أو القيمة المعنوية لهذا الانتصار قد طغت على كل ما عداها من القيم. لقد أحرز الفاتح أول انتصاراته وأضخمها على ضفاف البسفور، وهو ابن اثنين وعشرين عامًا (٨٥٧هـ- ١٤٥٣م) فلم يداخله الغرور لما أحرزه ولم يأخذه الفخر بما أنجزه وحققه فمضى للصلاة في مسجد (أيا صوفيا) شاكرًا للّه على ما منحه من النعمة، وأطلق على المدينة المحررة فورًا اسم مدينة الإسلام (إسلامبول)، وأسرع إلى موضع استشهاد الصحابي (أبي أيوب الأنصاري) في حصار القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان (٥٢هـ) فأقام عليه مسجدًا؛ مبرهنًا على أن الفتح العظيم لم يكن إلا امتدادًا لجهاد العرب المسلمين من أجل رفع راية الإسلام والمسلمين. وأدرك الفاتح بأن هذا النصر لابد أن يستثير حقد الحاقدين من الفرنج والصليبيين؛ فمضى مجاهدًا في سبيل الله محتسبًا الأجر والثواب على الله، فأتعب الدنيا وأتعبته حتى خرج من الدنيا مخلفا للمسلمين فخر الدين وعزة الإسلام [2].

(٤)

التكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار:

لم تكد جحافل الصليبيين تنحسر عن الشرق الإسلامي حتى نُكب العالم الإسلامي بمحنة أخرى أشد وأقسى... إنها محنة الغزو الكاسح المدمر الذي شنه التتار القادمون من بلاد منغوليا شمال شرقي آسيا. وفي سنة ٦١٦هـ استولى المغول على مدينة بخارى، وفي العام التالي استولوا على سمرقند، وأخضعوا سائر بلاد ما وراء النهر التي كانت تشكل قسمًا من الدولة الخوارزمية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد توغلت قوات المغول

١- إسماعيل ياغي حمود: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، الجزء الأول، ص: ١٥١، ١٥٢ ط/دار المريخ، ١٤٠٤هـ.

٢- بسام العسيلي : الفاتح القائد، ص: ١١ -١٢، دار النفائس، ط ١٤٠٦هـ.

في بلاد خراسان واستطاعت أن تسيطر على كل من بلخ ومرو ونيسابور[١]..

لقد كان العالم الإسلامي في ذلك الوقت -بعد موجة صلاح الدين التوحيدية – قد انقسم على نفسه، وعاد إلى سيرته الأولى حتى في داخل البيت الأيوبي الذي سادته صور مريرة من الصراع والإقطاعات المتنافسة التي كانت تُسمى (الإمارات) وغابت روح الإسلام الموحدة، وحلت نعرات عنصرية وعشائرية مكانها. وفي ظل هذا الوضع استطاع المغول بعد أن قضوا على بلاد ما وراء النهر وخراسان وأذربيجان وطبرستنان والري وهمذان أن يقضوا على دولة السلاجقة في آسيا الصغرى وأرمينية ولم يلبثوا إلا قليلا حتى زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وأسقطوها بعد مقاومة لا تذكر، وأنهوا خلافة العباسيين في العراق سنة ٦٥٦ هـ، وسفكوا الدماء بطريقة وحشية لم تحدث في تاريخ البشرية، ثم زحفوا على الشام الذي كان تحت سيطرة الزعيم الأيوبي الضعيف الملك الناصر، فاستولوا على حلب وحماة ودمشق بسهولة ويسر.

وبحكم المسيرة الطبيعية، كان لا بد أن يسير التتار من الشام متوجهين نحو مصر لتعاني من الدمار الذي أذاقوه بقية بلاد المسلمين، وقد كان أمير مصر المظفر سيف الدين قطز قد أدرك أن التتار سيهاجمون مصر بالضرورة، وقد صدق إدراكه فلم يلبث أن جاءته رسالة من هولاكو؛ نقتطف منها ما يلي: « من ملك الملوك شرقًا وغربًا الخاقان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك ليعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حلَّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف

١- د. حامد غنيم : الجبهة الإسلامية ج٣- ص ٢٤، طبع مصر.

الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرناها من الفساد وقتلنا معظم العباد»[١].

والرسالة – كما نرى- تكشف عن الخراب الذي عم العالم الإسلامي وحضارته على يد المغول، وهم يتباهون به، ويعتبرون هذا الخراب رسالتهم، وأنهم خلقوا من سخط الله، ليؤدب الله بهم المتهالكين على الدنيا، المتقاتلين على أهداف صغيرة، المتنابذين لأتفه الأسباب. وقد كاد خرابهم يعم لولا أن جمع الله قلوب المماليك والشعب المصري على الجهاد، ووقف عالم فذ من علماء الإسلام هو العز بن عبد السلام الذي أهاب بالجميع أن يموتوا ذودا عن دينهم، وأهاب بالمماليك أن يتنازلوا عن امتيازاتهم وبالشعب أن يندفع إلى الجهاد بالدم والمال. وعندما طلب منه الأمراء المماليك أن يدعو طبقات الشعب إلى البذل والعطاء في سبيل الجهاد رفض الشيخ ذلك وأشار إلى أن على الأمراء أن يكونوا القدوة وأن يبدؤوا بأنفسهم في البذل والعطاء؛ حتى يتأسى بهم الناس. وقد حاول الأمراء المماطلة وقالوا: ليس عندنا أموال، فاطلب من الناس أن يتبرعوا لنا وللجيش. فأجابهم الشيخ: لا، حتى تخرجوا ما عندكم وما في قصوركم من الذهب والفضة، وما عند نسائكم من الحلي، وأن تخلصوا في البذل لله وحده؛، ليأتيكم منه النصر. وحرك قلوبهم فاستيقظ فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى البذل والجود، وكثرت الأموال، فأعدوا العدة وجمعوا السلاح، وأُقيمت معسكرات التدريب في كل مكان، وارتجت البلاد بالهتاف والتكبير، حتى كأن كل مصري قائد مظفر، وحتى صار كل مصري يشتهي الوصول إلى المعركة[٢]. وكان النصر في موقعة عين

١- السلوك للمقريزي١ ق٢، ٤٢٧-٤٢٩ (نقلًا عن وثائق الحروب الصليبية والمغول الدكتور محمد ماهر حماده، ص: ٣٥٤)، طبع بيروت.

٢- على الطنطاوي رجال من التاريخ، ص٢٠٢، طبعة مؤسسة الرسالة.

جالوت (٦٥٨هـ) بفضل هذا التكامل بين العلماء والأمراء، وبفضل شعار وا إسلاماه الذي رفعه سيف الدين قطز، رضي الله عن الجميع.

(٥)

من نماذج التكامل بين الساسة والدعاة في المغرب وإفريقيا:

نجح المرابطون الصنهاجيون في المغرب العربي الإسلامي (٤٣٠-٥٤٠هـ) في إقامة دولة المرابطين؛ التي كانت-بحق- تجربة رائعة للتكامل بين السياسة والدعوة وكانت إحدى أعظم الدول الإسلامية في إفريقية والمغرب العربي. وقد قامت هذه الدولة على ركيزة الالتحام التام بين الدولة والأمة، على أساس من كتاب الله وسنة رسوله، والجهاد بهدف إقامة مجتمع إسلامي، ونشر الإسلام في إفريقيا. وقد وضعوا نصب أعينهم تربية الشعب على أسس إسلامية جادة، والتقدم به للقضاء على الوثنيات في إفريقيا، وحركات المرتدين وأدعياء النبوة في قبائل غمارة وبرغوطة، وكان عبد الله بن ياسين -الأب الروحي للدولة- يلقب بمحيي السنة وقامع البدع والضلالات. وقد أحدث عبد الله بن ياسين هزة في حياة العامة في هذه المنطقة، فغيرَّ العادات، وأحيى الروح الدينية، وأقام حدود الإسلام، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس[١].

وكان رجال الدولة المرابطية على هذا المنهج، منهم يحيي بن إبراهيم، ويحيى بن عمر، وأبو بكر بن عمر اللمتوني، ويوسف بن تاشفين، وغيرهم، وقد علّموا الناس في الأربطة الدين والعمل؛ فاعتمد رجال الرباط على أنفسهم في الحصول على كل ما يحتاجون إليه عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من البر والبحر. كما كانوا يعدون طعامهم بأنفسهم، مع الاكتفاء في الطعام بأقل القليل، وبالخشن من الثياب؛ فقد كانت حياتهم البسيطة

١- د. عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، ص٦٦ط، دار الغرب ١٩٨٨م، وانظر: إبراهيم الجمل: الإمام عبد اللطيف بن ياسين ص٦١، دار الإصلاح بالدمام.

متواضعة؛ خشنة، لا يبتغون غير الدار الآخرة، وآلوا على أنفسهم الإخلاص، والتوبة والتعبد[١].

وقد تمخضت جهود المرابطين عن إسلام شعوب (التكرور) بغرب إفريقيا التي كانت أول الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام، في حركة المرابطين الأولى، في أيام الشيخ عبد الله بن ياسين؛ فعمل التكرور بدورهم على متابعة الدعوة إلى هذا الدين، وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولوف، والولبي والماندنجو، ونشروا المدارس الإسلامية، وأخذوا من حضارة المغرب، وتأثروا بالشريعة الإسلامية، واستعانوا بالدعاة من المرابطين في بلاطهم، لتعليمهم الشريعة والقراءة والكتابة، حتى إنهم قلدوهم في ملابسهم.

وفي موجة اندفاع المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، وجهودهم في نشر الإسلام في منتصف القرن الحادي عشر (السادس الهجري) اعتنق حكام ولاية كانجابا (من الماندنجو) الإسلام وأخذوا يتوسعون، ويمدون نفوذهم إلى الجنوب، والجنوب الشرقي، فتكونت بعد ذلك من هذه الأراضي إمبراطورية مالي. وانتشر مسلمو غانة الذين اعتنقوا الإسلام في أتاجه ديارا، وغلم، ومسينا، واتجهوا خاصة إلى ديا، ومن ديا تحركت مجموعات من الديولا الذين حملوا الإسلام إلى الحدود الشمالية لمنطقة الغابات، وهناك أنشأوا مراكز إسلامية مثل(بيجو) بالقرب من جنوب نهر الفولتا الأسود، ومن هنا انتشرت المدن التجارية مثل بوندونكو، والكونج[٢]؛ وهي مدن تجارية قامت الحياة فيها على أساس الشريعة الإسلامية والرباط في سبيل الله. وإذا ما عبرنا منطقة الشمال الإفريقي ودخلنا إلى إفريقيا السوداء فسوف نجد جهودًا شعبية إسلامية ناجحة تكررت في الأمكنة والأزمنة المختلفة... وحسبنا هنا، في عملية التحليل التي نقوم بها لندحض

١- د. عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص٧٤.

٢- المرجع السابق، ص١٢٦ -١٤٧ وكل هذه القبائل.

الآراء العمومية غير العلميّة، أن نرصد بعض المحاولات البارزة التي نجح أصحابها في نشر كلمة اللّه وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومقاومة الجهل والبدع والانحلال...

لقد شهدت بلاد الهوسا في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (١٥للميلاد) تحولات خطيرة وحركة إصلاحية عظيمة؛ قادها بعض السلاطين كالسلطان (كانو) محمد رمفا، وسلطان (كتسينا) محمد كورو، وسلطان (زاريا) محمد رابو، الذين اعتنوا اعتناء كبيرا بإحياء الشعائر الدينية ومحاربة الوثنية وإضفاء الطابع الإسلامي على النظم السياسية، بالإضافة إلى توسيع قاعدة التعليم وتشجيع العلماء على نشر العلم في بقاع البلاد المختلفة، ونخص في هذا المجال السلطان محمد رمفا الذي وضع اللبنة الأساسية للبنية السياسية والاجتماعية والشرعية للدولة، والذي غير ملامح الدولة شبه الوثنية، وأدخل نظام الدواوين الإسلامية في سلطنته[١]، وقد تزامن عهد هذا السلطان مع زيارة أحد كبار العلماء المجاهدين من الشمال الإفريقي لبلاد السودان الأوسط والغربي وخاصة أغذر وكاتسينا، وكانو وستفي.. وذلك الشيخ هو: محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي. وتذكر بعض المصادر أن المغيلي أنشأ مدرسة إسلامية في كاتسينا، وجلس يعلم الناس شؤون دينهم، وأثمرت مجهوداته في تخريج عدد كبير من العلماء، وتأسيس مدارس علمية كبيرة[٢]، وفي الربع الأخير من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ظهرت حركة الشيخ (عثمان بن فودي) النيجيري (١١٦٦هـ- ١٢٣٣هـ) (١٧٥٢ – ١٨١٧م) وكانت تقوم على نشر الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات التي لحقت به. وكان الشيخ (عثمان بن فودي) في بداية دعوته يحدث الناس في خمسة أمور

١- احمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، ص٣٥،ط١، الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٧هـ، مصر.

٢- المرجع السابق.

رئيسية: أولها: ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة. وثانيها: ما يتعلق باتباع السنة وترك ما دونها من البدع والمنكرات. وثالثها: في رد الأوهام والآراء الخاطئة في أذهان الطلبة مما تلقوه من علم الكلام وتكفيرهم عامة الناس بلا مسوغ شرعي. ورابعها: يدور حول إخماد البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في دين الإسلام ورد العوائد المخالفة للشرع. ويختص الأمر الخامس: بتعليم العلوم الشرعية وتبسيط مشكلاتها وتقريبها من فهم العوام. وعندما تكاثر أتباعه، وهاجر إليه الناس من أقاصي البلاد مستمعين لوعظه ومقتدين بسلوكه، حسده علماء زمانه، وأظهروا له العداوة والبغضاء ووشوا به لدى الحاكم لتعطيل مسار دعوته.. وبالرغم من ذلك لم يكترث الشيخ عثمان فودي بكيدهم، ومضى يجادلهم باللسان والقلم؛ داحضًا افتراءاتهم ومبلغًا رسالته بصدق وإخلاص أذهل الناس جميعهم. ولقد استطاع الشيخ عثمان بن فودي بعد فترة وجيزة من قيام دعوته تكوين جماعة تسمى بـ(الجماعة)، وكان قوامها تلاميذ الشيخ نفسه، الذين تربوا على يديه، والذين صقلهم فكريًا، وهيأهم ذهنيًا وعلميًا للقيام بمسؤولياتهم في التربية والدعوة إلى دين الله[1]..

وفي سبتمبر ١٧٨٨م استدعي سلطان غوبر بأو علماء بلاده، وكان من بينهم الشيخ عثمان بن فودي، للاجتماع بهم في مناسبة عيد الأضحى، ولما اجتمعوا به في مكان يسمى (مغمى) حاول سلطان غوير إرضاء الشيخ عثمان بن فودي وأعطاه هدية ولم يعط العلماء الآخرين الذين كانوا معه، فرفض تلك الهدية، وطالب بدلا منها بخمسة أشياء:

١- أن يسمح له بالحرية في التجول للدعوة في سبيل الله.

٢- ألا يُعترض سبيل أي شخص يريد الاستجابة للدعوة.

٣- أن يوقر كل عالم يلبس العمامة.

١- أحمد محمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، ص: ٧٣ : ٨٢ .

٤- أن يطلق سراح المسجونين «السياسيين».

٥- ألا تفرض ضرائب باهظة على الرعية[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن سلطان عوبر «بأو» قد قبل هذه «الشروط» وكان هذا الموقف نقطة انطلاقة لدعوة الشيخ عثمان بن فودي، واعتبر أول انتصار سياسي، ودعوي على حُكام بلاد الهوسا، وهكذا قدم الشيخ عثمان بن فودي تجربة لحركة إسلامية شعبية إصلاحية رائعة؛ كان التعاون فيها واضحًا بين بعض الساسة وعلماء الدين وقادة الدعوة.

(٦)

صور التكامل الدعوي السياسي من الهند:

كان من أبرز الظواهر المألوفة في تاريخ الإسلام في شبه القارة الهندية ذلك التكامل بين الدعوة والدولة، وبين رجل الحكم ورجل العلم، وتعاونهما معًا في السلم وفي الحرب؛ وعندما تقع انحرافات كان الجميع يتعاونون على إصلاحها.. وذلك، بطبيعة الحال، عندما ينجح الدعاة في استعمال وسائل الحكمة ويصلون إلى قلوب أولي الأمر وعقولهم، وقد كان السلطان محمود الغزنوي (الفاتح الثاني للهند) على هذا النحو، وبعده بقرن مشى السلطان شهاب الدين الغوري في الطريق نفسه، وانتشرت في عهده المساجد في الهند انتشارًا كبيرًا. وبينما كان السلاطين الغزنويون (٥١ - ٥٨٢هـ = ٩٦٢ - ١٨٦م)، ثم الغوريون (٥٤٣-٦١٢هـ) يفتحون البلاد بوسائل الفتوحات، كان الدعاة من أمثال الشيخ معين الدين الجيشي يفتحون العقول والقلوب بالحكمة والموعظة الحسنة. وسار المماليك (٦٠٢-٦٨٩هـ = ١٢٠٦-١٢٩٠م) وعلى رأسهم قطب الدين صاحب منارة قطب، ثم الخليجيون (٦٨٩-٧٢١هت) (١٢٩٠-١٣٢١م) وعلى رأسهم علاء الدين الخلجي، وآل تغلق (٧٢١-٨١٤هـ = ١٢٩٩٠-١٤١١م) واللودهيون (٨٨٣-٩٣٢هـ/١٤٤٨-

---

١- المرجع السابق، ص ٧٦ .

١٥٢٦م) في الطريق نفسه: أي طريق المزج بين الدعوة والدولة، وتبجيل الدولة لدعاة الإسلام تبجيلا كبيرًا. ولقد روى أن السلطان المملوكي شمس الدين الألتمش كان يستأذن في الدخول على الشيخ بختيار الكعكي، ثم يسلم عليه بعد دخوله؛ وكأن شمس الدين هو الملك. وقد روي أن المسجد الذي كان يقيم فيه الزاهد نظام الدين البدايواني كان عامرًا بالزوار والقُصَّاد أكثر من قصر الملك!![١].

ومن الحكام المجاهدين الذين اعتمدوا على الدعاة والعلماء، وتكاملوا معهم تكاملا رائعًا الملك مظفر بن محمود، الذي ولد يوم الخميس ٢٠ شوال سنة ٨٧٥هـ في الكجرات، ونشأ نشأة عالم عابد، في أسرة أكثر ملوكها صالحون متعبدون، وقرأ ما كان معروفًا من كتب العلم، فبرع في الحديث، وقد ولي مظفر الملك في رمضان سنة ٩١٧هـ وهو في الثانية بعد الأربعين، وحكم إلى أن توفي في جمادى الأولى ٩٣٢هـ، فكانت مدة سلطانه خمس عشرة سنة، مرت على الناس - ممّا رأوا فيها من عدله وسخائه، وحزمه وتقواه - كأنها خمسة عشر يومًا. وكان يتبع السنة، ويعمل بما حفظ من الأحاديث الصحيحة في كل صغيرة وكبيرة، من أمور نفسه وأهله وأمور الرعية، ويُدني العلماء ويُحبهم ويُكرمهم، ويجتمع إليهم، وكان يخاف الله ويخشى أن يكون قد جانب الشرع، وكان كثير الإنفاق في الخير، فسأل العلاّمة (خرم خان) وكانت له ثقة به، وقال له: لقد نظرت فيما أنفقه فإذا أنا بين إفراط في صرف هذا المال، وهو مال المسلمين، وتفريط في منعه، فإذا سألني ربي عن ذلك فبماذا أجيب؟

ومن المآثر التي نسبت إلى آل طغلق جهود الملك الصالح المصلح فيروز، كما أنه ظهر في أحمد أباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمظفر الدين الحليم الكجراتي. ويُروى أن علاء الخلجي؛ أكبر ملوك الهند في زمانه، استأذن الشيخ الدهلوي في أن يزوره فلم يأذن الشيخ؛ وهو

١- د. عبد الحليم عويس: صفحات من جهود المسلمين في الحضارة الهندية، ص٥٥-٥٦.

ما يدل على المكانة الرفيعة للعلماء، ويدل على تدين الحُكام وتواضعهم أيضًا. ولما مرض شيخ الدولة آبادي المفسر، وأشرف على الموت عاده السلطان إبراهيم الشرقي، ودعا عند رأسه أن يكون هو (أي السلطان) فداءه من الموت.

ويعد المصلح المجدد الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (٩٧١ - ١٠٣٤هـ) مثلا رائعًا في إصلاح الحكام وذوي النفوذ، والتلطف في الدعوة الحكيمة التي كان يمارسها مع الهنادكة. وقد كان الشيخ أبو الحسن الندوي يبدي إعجابه الشديد بالمنهج الدعوي الحكيم للشيخ السرهندي، ويقول بوضوح: «أنا تلميذ صغير لتاريخ الإصلاح والتجديد، وإن هواياتي وإن كانت متعددة ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ، وخاصة تاريخ الإصلاح والتجديد، فما رأيت تجربة في القرون الأخيرة- أعني بعد القرن الثامن على الأقل- أنجح وأكثر توفيقًا من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السرهندي في القارة الهندية»[1].

ويتساءل الشيخ الندوي قائلا: «كيف استطاع هذا الرجل الأعزل المجرد من كل سلاح، والمجرد من كل ثروة مادية، والمجرد من كل جيش، أن يحول التيار الإلحادي في الإمبراطورية المغولية الكبرى في الشرق، وفي البلاد العربية والتركية، وذلك بتأثير الخلل الذي أحدثه الملك القوي القاهر ذو الفتوحات الواسعة، وهو جلال الدين أكبر؛ وكان هذا الإمبراطور قد نشأ في قلبه عداء للإسلام وحقد عليه، ومن الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيع أحد في بلاطه أن يسمي ابنه محمدًا، لأنه كان يكره هذا الاسم وهناك قيض الله – تعالى- الشيخ أحمد السرهندي لمكافحة هذا التيار؛ فجعل يراسل الملك وأهل البلاط من الوزراء الكبار، والأمراء العظام، ويثير فيهم النخوة الإسلامية والحمية الدينية، وبقي هكذا مدة طويلة يراسل

١- انظر الشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي: حكمة الدعوة وصفة الدعاة، نشر المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء.

ويكتب ويقابل حتى كسب عددًا كبيرًا من الأمراء؛ فكانوا أنصاره وتلاميذه، ثم مات (جلال الدين أكبر) وخلفه ابنه نور الدين جهانكيز، وقد عرف (جهانكيز) أن الشيخ السرهنديّ من طراز آخر، وأنه عالم رباني مخلص، زاهد في الدنيا، محب للغير فأحبه وأجلَّه، وبدأ يهتم برفع شعائر الإسلام وبناء المساجد في المناطق والقلاع التي كان يفتحها، وازداد احترام الإسلام والمسلمين.

ولم يزل الشيخ السرهندي يجري اتصالاته بالأمراء المسلمين وكبار الوزراء حتى كون مجموعة مؤمنة ذات حمية دينية فقلب المعادلة وغير مجرى التاريخ، فكان جهانكيز أفضل من أبيه أكبر، وكان الابن (شاهجهان) أفضل من أبيه جهانكيز، إلا أنه أنفق ثروة الهند في بناء القلاع والعمائر والفنون.

ويلخص الشيخ أسباب نجاح السرهندي فيقول:

هناك عاملان أساسيان في نجاح رجل الدعوة:

أحدهما: تملك الفكرة وسيطرتها على نفسه، والثاني: التجرد عن المطامع الدنيوية والزهد في المناصب والملك[1].

وقد أكرم الله الهند الإسلامية عندما اعتلى العرش السلطان (أورنكزيب عالمكير) (١٠٦٨-١١١٩هـ / ١٦٥٨-١٧٠٧م)، بعد أن عمّ الخراب البلاد الإسلامية؛ فأبطل البدع، وحاسب مَن شَرِب الخمر ولعب الميسر، وبعث بالمحتسبين لمراقبة تعاملات الناس، وعمر المساجد المخربة، وأمدها بالخطباء والوعاظ، وكان أفضل بذرة أثمرتها جهود الشيخ السرهند لنشر الإسلام ورفع ألويته، وقضى السلطان أورنكزيب أيامه على خير ما يقضيها مسلم تقي عابد؛ ينزل عن دابته بخشوع وخضوع، وأبعد عن بلاطه الموسيقيين والمطربين، هذا فضلا عن تجمله بالصبر والتواضع.

وقد نجح أورنكزيب في القضاء على دعاة الانشقاق بدرجة كبيرة

١- المرجع السابق

والزندقة التي كانت أثرًا من آثار جده المنحرف عن الإسلام الإمبراطور جلال الدين أكبر، كما أبطل ثمانين نوعًا من الضرائب، وبنى المساجد في أقطار الهند، وأقام لها الدعاة والمعلمين، وأدنى الفقهاء والعلماء من مجلسه، وبنى لهم المدارس، وأعطاهم الأعطيات شريطة أن يعلموا، وقام بتدوين الأحكام الشرعية وتقنينها فيما سمي (بالفتاوى العلمكيرية) وهي الأم لمجلة الأحكام العدلية (العثمانية).

وهكذا امتزج الحكم بالفقه والعلم، وتعاون أولو الأمر وأولو الرأي، وقادة علوم الدين، وقادة سياسة الدنيا.. وبهذا التكامل الذي ظهر بوضوح في التاريخ الهندي الإسلامي تقدم الإسلام فدخل الناس في دين الله أفواجًا، وقدمت الهند الإسلامية صفحات رائعة في سفر الحضارة الإسلامية. وكما يذكر سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي (رحمه الله) فمن يقرأ سيرة (أورنكزيب عالمكير) يجد فيها نواحي علمية وعملية جمّة، ويجدها حافلة بجلائل الأعمال طيلة خمسين سنة، لم تتوقف جهوده فيها يوما واحدًا، كما لم تتوقف فتوحاته العظيمة وإصلاحاته الكبيرة؛ فضلا عن تقشفه وصلابته واستقامته ودقته في تعظيم أوقاته والمحافظة على الفرائض، وكان يوالي بين أداء السنن واشتغاله بالعبادات والعلم، مع إشرافه الدقيق على مملكته التي لا تدانيها في سعتها مملكة أخرى في عصره... لقد كان أورنكزيب، بحق، نسيج وحده في علوّ الهمة وقوة الإرادة!![1].

١- د. عبد الحليم عويس: صفحات من جهود المسلمين في الحضارة الهندية، ص:٥٢-٥٦ .

(٧)

دور الزهاد الصالحين في مؤازرة السلطة ومقاومة الفساد:

كانت للمجاهد الزاهد (سهل التستري) جهود ضخمة ضد جماعات المبتدعة المارقين؛ أدعياء الصلاح والزهد، الذين يطلبون الدنيا - مع التظاهر بالزهد- وقد أصدر كتابًا عنوانه: «المعارضة والرد على أهل البدع وأهل الدعاوي في الأحوال»[١]، ووقف كثير من الزهاد في مواجهة موجات الفساد والمنكر والنفاق والتصوف المنحرف والبدع. وللتستري في كتاب (التراث الصوفي) كلام طيب في هذه المجالات؛ منه قوله: «واعلموا يقينًا أنكم لن تجدوا في زمانكم من عمل بعلمه إلا ما شاء الله، كل من كان أكثر علمًا كان أسوأ حالا !! قيل: وكيف ذلك؟ ولم صار هكذا؟ قال: «لأنهم صيروا علمهم مؤاكلة لحم، أو طلب رياسة، أو متاع الدنيا، أو رياء وسمعة، وتركوا الأمر الأول، وآثروا الدنيا على الآخرة»[٢].

ويقول التستري أيضًا: «سيكون في آخر الزمان العلماء ثلاثة أصناف: صنف منهم عرف المنكر فأنكره بقلبه.. وهؤلاء أعز من الكبريت الأحمر»[٣].

وقد كان الإمام الحسن البصري (رضي الله عنه) إمامًا في باب تغيير المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان يفضل سياسة تغيير المنكر بأقل قدر ممكن من الخسائر؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة. الفرصة ليعظ الوالي ابن هبيرة نصحه بأحكم قول وأشجعه على خلاف مداراة صاحبيه في نصيحة ابن هبيرة وهما: ابن سيرين والشعبي. ومن الطريف أن ابن هبيرة أعطى الحسن أعطية أكثر من زميليه مع أنهما قالا له قولا لينًا، فقال زميلاه تعليقًا على ذلك: سفسفنا له فسفسف لنا[٤].

١- نشره الدكتور محمد كمال جعفر بالقاهرة، سنة ١٩٨١م.

٢- سهل التستري: التراث الصوفي، ٩٣/٢، القاهرة ١٩٨٦م. بتحقيق محمد كمال جعفر.

٣- من التراث الصوفي ١٣٥/٢.

٤- انظر الحلية ١٤٩/٢ نقلًا عن الدكتور أبو اليزيد العجمي (الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف الإسلامي)، رسالة دكتوراه بدار العلوم ص ٣٤٥، جامعة القاهرة.

وعلى خطى الحسن البصري كان الفضيل بن عياض مع خلفاء بنى العباس؛ نصحا وتوجيها وكان يقول: لو أن لي دعوة مستجابة ما صيرتها إلا في الإمام (يقصد أن في صلاح الإمام صلاحا للعباد والبلاد).

وحكايات الفضيل بن عياض مع هارون الرشيد عديدة ومتنوعة، وعندما قال له هارون الرشيد: عظني، قال له الفضيل: ماذا أعظك؟ هذا كتاب الله بين دفتين: انظر ماذا عمل بمن أطاعه وماذا عمل بمن عصاه؟ إني رأيت الناس يغوصون على النار غوصًا شديدًا ويطلبونها طلبا حثيثا... أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها. فقال له هارون: عد إليَّ قال الفضيل: لو لم تبعث إليَّ لما أتيتك وإن انتفعت بما سمعت مني عدت إليك... وقد قال له الرشيد يومًا: ما أزهدك!! فقال له الفضيل: أنت أزهد مني.. فقال الرشيد: كيف ذلك؟! قال الفضيل: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة. الدنيا فانية والآخرة باقية[1].

وقد كانت (لذي النون المصري) مواقف أيام الخليفة المتوكل العباسي، كما كانت (لحاتم الأصم) مواقف أيام الرشيد أيضا. وقد رفض (سهل التستري) أن يعالج الحاكم (ابن الصفار) حتى يرد كل مظلمة للناس عنده، ثم لما عالجه عرض عليه مالا وثيابًا فلم يقبلها[2].

وقد كانت للإمام أبي حامد الغزالي مواقف رائعة في الثبات على الحق والجهر في وجه المنكر، دون أن يخشى في الله لومة لائم.. ومن ذلك نصحه لأحد ملوك خراسان، فقد قال له: يا أسفاه! أن رقاب المسلمين كانت تسقط بالمصائب ورقاب خيلاتك كانت تسقط بالأطواق الذهبية.

كما كتب الغزالي إلى أمير مدينة طوس بخراسان يقول له: «اعلم أن

١- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ترجمة رقم ٥٠٤.

٢- د.أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف الإسلامي (رسالة دكتوراه) ص٢٥١.

مدينة طوس أصبحت خرابًا بسبب المجاعات والظلم، وأن دعاء أهل المدينة (طوس) مجرب بالخير والشر.. فاتق الله».

وقد كانت للشيخ الجيلاني مواقف مع بعض الخلفاء، وعندما ولّى الخليفة المتقضي قاضيًا ظالمًا قال له من فوق المنبر: «وليت على المسلمين أظلم الظالمين، ما جوابك عند رب العالمين أرحم الراحمين؟». فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضي الظالم[١]. وعلى الدرب نفسه من الجهاد بالكلمة والأمر بالمعروف كان أبو الحسن الشاذلي، الذي كانت له مواقف مع السلاطين كثيرة مشهورة.

وقد كان للزهاد الملتزمين بالكتاب والسنة في اليمن خلال القرنين السادس والسابع الهجريين أثرهم البالغ في تغيير نظام الحكم وأسلوبه. والمؤرخون يذكرون تلك الصداقة الوطيدة بين مؤسس الدولة الرسولية الملك المنصور بن عمر بن على بن رسول (٦٢٩-٦٤٧) وبين الفقيه الزاهد محمد بن أبي بكر الحكم (م: ٦١٧هـ) وصاحبه الزاهد محمد بن حسين الجيليني (م: ٦٢١هـ) ويقال إنهما اللذان قويا عزمه في الاستيلاء على الحكم بعد مشاهدتهما تعنت نظام الحكم السابق وفساده، وبهذا تدين الدولة الرسولية للزهاد الصالحين في ظهورها[٢].

وأيًا كان الأمر فقد اجتهد كثير من الزهاد في تغيير الأحوال وتربية أنفسهم وذويهم، وفي الإصلاح الاجتماعي بالوسائل الحكيمة.. وقد وجدوا أن من بين منافذ التغيير الاجتماعي نصح الحكام وتوجيههم وهو أمر يتطلب صدقًا مع الله و شجاعة لا يملكها إلا الزاهد في الدنيا[٣].

١- المرجع السابق ص ٣٥٠.

٢- المرجع السابق: ص٣٥٥.

٣- أبو اليزيد العجمي : الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف الإسلامي (رسالة دكتوراه بدار العلوم) ص٣٥.

(٨)

دولة الدعوة في جزيرة العرب:

كان القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر المسيحي بداية عصر الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ وفي هذا القرن كان العالم الإسلامي يسير على النهج نفسه الذي سار عليه في سابقه من انفصال عن الحقيقة الإسلامية، ومن سيطرة المفاهيم المغلوطة عن العقل الإسلامي، ومن تمزق سياسي وفوضى اقتصادية واجتماعية.. بحيث أصبح الحال -كما يسميه المفكر الجزائري مالك بن نبي- حالة (القابلية للاستعمار)[١]..

إنها الحالة التي تتوافر فيها مواد خام بشرية تمتاز بـ (البطالة)، و(الجهل)، و(الانحطاط الخلقي) المتولد من انحطاطين: أحداهما: فكري، والآخر: نفسيّ.

وقد ولد محمد بن عبد الوهاب سنة (١١١٥هـ) بالعينية شمال الرياض[٢]، وعاش حياة حافلة بالتعلم والارتحال في طلب العلم، وقد حفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة[٣]، وجاهد في سبيل تكوين رؤية سلفية تعيد حال الأمة الإسلامية إلى الصلاح، حتى تنجح في تحقيق عودتها إلى مكانها التاريخي.. وظل كذلك حتى وافته منيته سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) بعد أن شهد تحول بلاده من حياة الجاهلية والبداوة إلى حياة الحضارة، واستنارت نجد والجزيرة العربية بدعوته العظيمة[٤].

وقد تلخصت الجوانب الإصلاحية في دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في الآتي:

١- انظر شروط النهضة: فصل (عامل القابلية للاستعمار)،ص٢٢٩، الطبعة الثالثة.

٢- أحمد عبد الغفور العطار: محمد بن عبد الوهاب،ص٣١.ط٢، مكتبة العرفان، بيروت.

٣- أحمد بن حجر طامي: الشيخ بن عبد الوهاب، مطبعة الحكومة بمكة، ١٣٩٥هـ.

٤- أحمد عبد الغفور العطار: محمد بن عبد الوهاب،ص١٠١.

١- تصحيح عقيدة المسلم وتطهيرها من مظاهر الشرك التي علقت بها، وذلك بالعودة إلى عقيدة التوحيد كما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة.

٢- رفض الخرافات التي أُقحمت على الإسلام، في مجالات التوسل والاستغاثة ومقاومة الخرافات والبدع.

٣- فتح باب الاجتهاد – عند توافر وسائله- وعدم التعصب لمذهب معين، وضرورة أن يعود المسلمون إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة.

٤- ضرورة إحياء فريضة (الحسبة) أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء فريضة الجهاد التي خمدت في نفوس المسلمين.

٥- العمل على إقامة دولة تتبنى الدعوة؛ لأنه بالدولة والدعوة معًا تُبنى حضارة الإسلام، وبالتمزق أو الانفصام بين الساسة والدعاة يقع السقوط والتشرذم.

وقد كللت جهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالنجاح التام عند الاتصال بالإمام محمد بن سعود الكبير، ومن ثم تعاهدا على إقامة (دولة الدعوة) في الدرعية على مقربة من الرياض، وامتدت في جميع أنحاء الجزيرة وأثرت في كثير من الإصلاحيين والمجددين في العالم الإسلامي. وقد مرت (دولة الدعوة) في الجزيرة بأطوار مثلتها الدولة السعودية الأولى والدولة السعودية الثانية.. والدولة السعودية الثالثة التي كانت بقيادة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (رحمه الله).

(٩)

صورة دعوية معاصرة من تركيا:

ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» وهي إحدى قرى قضاء «خيزان» التابع لولاية «بنيس» شرق الأناضول سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٣م[١]. كان والده ميرزًا ورعا يضرب به المثل في الزهد والورع؛ فلم يطعم أولاده من غير الحلال، حتى إنه كان يعود بمواشيه من المراعي يشد أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين.

وتقول أمه «نورية»: إنها ما أرضعت أطفالها إلا وهي على طهر ووضوء. وقد تلقى علومه في كُتّاب القرية «كاغ» سنة (١٨٨٢م). وفي سنة (١٨٨٨م) ذهب إلى «بتليس» والتحق بمدرسة الشيخ «أمين أفندي»[٢]، وفي سنة (١٨٩٢م) ذهب سعيد النورسي إلى ماردين؛ حيث بدأ يلقي دروسه في جامع المدينة، ويجيب عن أسئلة قاصديه، وقد أصبح يطلق عليه اسم (الملا سعيد). وفي سنة ١٨٩٤م ذهب إلى «وان» بدعوة من واليها «حسن بك»؛ حيث بقي عنده، ثم في منزل «طاهر باشا»، ولقد هيأ الله له ظروف اللقاء ببعض أساتذة العلوم الحديثة (من جغرافية، وكيمياء وغيرها). وحينما دخل معهم في نقاش شعر بقصوره في هذه العلوم، مما جعله يقبل على تعلمها بشغف عظيم حتى أتقنها وأصبح متمكنًا منها؛ لدرجة أنه كان قادرًا على التأليف ومناقشة المختصين فيها[٣]، وفي هذه الفترة وأثناء إقامته في «وان» قرأ في الصحف المحلية خبرًا مدهشًا هز كيانه كله هزًا عنيفًا، فقد نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني (غلادستون) في مجلس

١- اعتمدنا في هذه النبذة الوجيزة على الكتاب الرائع: بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص١٩ (بتصرف) لصديقنا الكبير الأستاذ: إحسان قاسم الصالحي،ط٣، الكلمات للنشر.

٢- المرجع السابق.

٣- المرجع السابق،ص٢٤.

العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم حيث قال: «ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم؛ لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به».

وقد زلزل هذا التصريح الآثم كل كيانه، وصمم بينه وبين نفسه على أن يكرس كل حياته لإظهار إعجاز القرآن وربط المسلمين بكتاب الله حيث قال: «لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها»[١].

وفي شتاء سنة ١٩١١م(١٣٢٧هـ) زار سعيد النورسي بلاد الشام حيث كانت أخته هناك، وألقى خطبة باللغة العربية في الجامع الأموي في دمشق؛ مخاطبًا العلماء وجمعًا غفيرًا من المصلين، وقد طبعت خطبته هذه في كراسة تحت عنوان (الخطبة الشامية) التي شخّص فيها أمراض الأمة الإسلامية وعلاجاتها، ورأى أنها تنحصر في الأمراض الستة الآتية:

١- اليأس أو القنوط الذي ما زال يحد أسباب الحياة في نفوسنا.

٢- موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

٣- حب العداوة والبغضاء وإيثار الخلاف.

٤- تجاهل الرابطة الروحية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

٥- ذيوع الاستبداد مثل ذيوع الأمراض المعدية المختلفة؛ فالاستبداد ممتد في كل حياتنا.

٦- حصر الهمة في المنفعة الشخصية، دون الالتفات إلى النفع العام[٢].

وعندما دعي ليقابل حكومة كمال أتاتورك وأعضاء البرلمان في أنقرة لبى الدعوة وذهب إلى أنقرة سنة ١٩٢٢م. قبيل عيد الأضحى؛ حيث استقبل في

١- المرجع السابق،ص٢٣.

٢- المرجع السابق، ص ٣٦.

المحطة استقبالا حافلا، إلا أنه لم يسعد في أنقرة كثيرًا؛ إذ لاحظ بأسف بالغ أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة، كما أن تصرفات مصطفى كمال أتاتورك وسلوكه المعادي للإسلام أحزنه كثيرًا، ذلك فقد قرر أن يطبع بيانًا في ١٩/١/١٩٢٣م يتضمن عشر مواد؛ موجهًا إلى النواب يعظهم ويذكرهم بالإسلام، مستهلا بـ «يا أيها المبعوثون: إنكم لمبعوثون ليوم عظيم»، وكان نتيجة هذا البيان الذي وزع بين النواب، وتولى إلقاءه الجنرال (كاظم قرة بكر) (القائد الأول لحركة الاستقلال) أمام ما يقارب ستين نائبًا من النواب أنهم قد استقاموا على التدين وأقاموا الصلاة، حتى إن مسجد بناية المجلس لم يعد كافيًا للمصلين فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه. ولكن لم يرض مصطفى كمال عن هذا البيان؛ فاستدعى بديع الزمان وحدثت مشادة عنيفة، وكان مما قاله مصطفى كمال: «لا ريب أننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل هذا المجلس «فأجابه بديع الزمان مشيرًا إليه بإصبعه في حدة: «باشا.. باشا.. إن أعظم حقيقة بعد الإيمان بالله هي الصلاة، وإن الذي لا يُصلي خائن، وحكم الخائن مردود»[١].

وعندما ظهرت للعيان المؤامرة على الإسلام، دينًا وحضارة وخلافة، وظهرت هيمنة العلمانية والصهيونية على تركيا بجلاء؛ لم يبدّد سعيد النورسي وقته في البكاء ولعن الظلام، بل برمج حياته على أساس مقاومة الإلحاد العلماني الماسوني الذي جاء يقتلع بذور الإيمان؛ مسلحًا بالمكر والتآمر والانحلال الأخلاقي، وتوجيه الفن والثقافة لخدمة الإلحاد والحياة الفوضوية.

ولأكثر من خمسة عقود وحتى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ

١- المرجع السابق، ص ٥٢، ٥٣ .

الموافق ٢٣ مارس سنة ١٩٦٠م حين وافته المنية؛ عاش سعيد النورسي يجاهد بقلمه وجهوده التربوية والدعوية، وأمامه هدف واحد انصرف إليه بكليته بعد تجارب متعددة وهو أن يبذر بذور الإيمان الصحيح عن طريق التربية القرآنية والنبوية، واقتلاعه بذور الإلحاد التي سعى العلمانيون والماسونيون إلى غرسها في الأرض التركية والعالم الإسلامي وكانت موسوعته (رسائل النور) خلاصة مشروعه العملاق لبعث الأمة الإسلامية بعثًا إسلاميًا وعصريًا. وكما رأينا فإنه في سبيل إنقاذ الإيمان اشتغل سعيد النورسي بالسياسية وتعاون مع الذين يمكن التعاون معهم من السياسيين ورجال الخلافة العثمانية، وقدَّم للسلطان اقتراحًا بشأن جامعة إسلامية عالمية في آسيا تضاهي الأزهر في إفريقيا؛ لكن النورسي عندما وجد أن الإصلاح عن طريق سياسة عاجزة وساسة لا يودون قيام النهضة على أساس الإسلام والهوية الحضارية القرآنية المستقلة؛ أقلع عن الاشتغال بالسياسة وابتعد عن كل صور الصدام بالساسة؛ ومن ثمَّ تفرغ لبناء الأمة من موقع الفقه العصري للقرآن.. فقهًا ينتهي ببناء الفرد العصري المؤمن، ومن ثم بناء المجتمع المسلم والحضارة الإسلامية القادرة على دحر الإلحاد، بلغة العقل والعلم والدين معًا، وبناء إنسانية مؤمنة معاصرة[١].

(١٠)

حرب التحرير الجزائرية صورة حية للتكامل الجهادي السياسي والدعوي:

ولد الإمام عبد الحميد بن باديس (الشيخ الرئيس) سنة(١٨٨٩م) في مدينة قسنطينة -أكبر مدن الشرق الجزائري – وأبدع مدن الجزائر على الإطلاق من حيث الموقع الطبيعي، وأشهرها من حيث احتضانها للقيم والثقافة الإسلامية، وإنجابها لكثير من قادة الفكر الإسلامي في الجزائر، وكذلك كثرة الآثار الإسلامية بها. وفي قسنطينة هذه نشأ الشيخ ابن باديس،

١- المرجع السابق،ص٢٣.

وترعرع وتلقى علومه، وقد تخرج في الزيتونة عام ١٩١٢م، ولم يلبث أن قام بالحج إلى بيت الله الحرام - شأنه شأن الأمير عبد القادر الجزائري — حيث استغل هذه الرحلة الدينية فطاف بالمشرق والمغرب، وأتيح له أن يعرف من أمراض المسلمين الشيء الكثير، فعاد إلى الجزائر عازمًا على الإصلاح وفق منهج إسلامي تكونت أبعاده في ذهنه إثر مجموعة من المؤثرات المهمة، صدر بعضها عن الواقع، وصدر بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ.

وقد عاش الشيخ ابن باديس ظروف محنة الاحتلال الفرنسي للجزائر الذي عمد إلى محاولة إزالة الإسلام وإخراجه من الجزائر إلى الأبد.. ولهذا كانت حركات المقاومة الجزائرية، في عمومها، حركات إسلامية، مثل حركة الأمير عبد القادر الجزائري، وحركة (نجم شمال إفريقيا) التي ظهرت ١٩٥٢م، ولهذا لم تلبث هذه الحركة أن تطورت وأعطت نفسها اسمها الصريح منذ سنة ١٩٣٦م، وأصبحت تدعى «الاتحاد الوطني للمسلمين المغاربة». وفي هذا السياق الإسلامي الجهادي الذي يقود معركة إنقاذ الجزائر من براثن الاستعمار، ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٣٠م؛ معطية كل الأهداف الجزائرية المبعثرة صيغتها التقنية الواضحة التي تمثلت في:

١- مقاومة الإدماج والتجنس وإبراز الشخصية الجزائرية.
٢- فصل الدين الإسلامي بكل أجهزته عن سلطة الدولة الفرنسية الحاكمة.
٣- إتاحة الفرصة للتعليم العربي والثقافة العربية.
٤- تربية الشباب الجزائري تربية إسلامية.
٥- العمل على توحيد كلمة المسلمين والقضاء على أسباب انحطاطهم.
٦- إنشاء المدارس العربية والإسلامية.
٧- إنشاء المساجد والنوادي الثقافية.

٨- إنشاء البعثات العلمية إلى بلاد الإسلام المتقدمة.
٩- تأسيس الكشافة الإسلامية.
١٠- تأسيس جمعية التجار المسلمين.
١١- تأسيس جمعية الفنون الجميلة والموسيقى العربية.
١٢- إنشاء صحافة عربية وإسلامية!!

وقد فسر الشيخ ابن باديس القرآن الكريم كله تفسيرًا يوقظ به الشعب الجزائري، ولم يكن عجبا أن يحتفل الشعب بيوم ختام هذا التفسير وكأنه يحتفل بعيد استقلال روحي وحضاري.. والتقت إرادة الساسة والمجاهدين والدعاة والعلماء بقيادة جمعية العلماء التي رفعت أمام الجميع شعارها الذي دوى في أنحاء الجزائر: شعب الجزائر مسلم... وإلى العروبة ينتسب.

وبعد جهاد طويل، ومعركة مباشرة قامت بين الشعب الجزائري والاستعمار الفرنسي خرجت فرنسا من الجزائر سنة ١٩٦٢م بعد احتلال دام مائة وثلاثين سنة.

وأخيرا،

فهذه دروس منتقاة من تاريخنا الإسلامي، ولا شك أن ثمة دروسًا كثيرة تزخر بها صفحات هذا التاريخ الخصب، وفي مقابل ذلك، هناك دروس على الشاطئ الآخر تؤكد لنا أن الهزائم والنكبات كانت مرتبطة بالتمزق والتنازع بين الأمراء والعلماء، وبين بقية أجزاء الجبهة الإسلامية. ولهذا ارتبطت ظاهرة المد والجزر في تاريخنا، إيجابًا وسلبًا، بمستوى هذه العلاقة، فالأمراء والعلماء يمثلون عقل الأمة وقلبها، وبدون عقل وقلب لا يمكن أن يتحرك الجسد الإسلامي.

وفي عصرنا الحديث يجب أن نضع هذه الحقيقة أمام كل الأمراء والعلماء، فلعلهم في هذه المحنة الإسلامية التي نعيشها يعبرون مأزق التمزق والتنازع،

ويلتقون على ثوابت الأمة المستقاة من دينها وحضارتها ورسالتها الربانية الإنسانية، ويعذر بعضهم بعضًا فيما اختلفوا فيه، وذلك في نطاق ما يتسع له الاجتهاد الفقهي، والنظام الإداري الإسلامي.



١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د.عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

———————— د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

———————— د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

———————— د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار(ديوان شعر).

———————— الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

———————— الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

———————— د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

———————— فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

———————— د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

———————— د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري ________________________

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة ________________________

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي ________________________

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود ________________________

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ.د سمير عبد الحميد نوح ________________________

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني ________________________

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي ________________________

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني ________________________

د. محمد إقبال عروي ________________________

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف ________________________

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

———————— أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

———————— الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

———————— د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

———————— أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

———————— د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

———————— د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

———————— د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

———————— أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

———————— د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

أ.د. موسى العرباني

د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعري).

الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

———————— د. فاطمة خديد

٤٦- في ميــزان الإسـلام.

———————— د. عبد الحليم عويس

نهر متعدد.. متجدد

هذا الكتاب

ومن السياق السابق نعلم أن التعامل مع الجوانب الاجتماعية في الإسلام يقف فوق أرضية عقدية وفكرية ونفسية وأخلاقية معينة، وأن المسلم يعالج هذه القضايا في إطار مفاهيمه الإيمانية الكلية، فهو لا يقوم بها؛ لأنها أوامر قانونية، ولا قضايا مصلحية عامة، يتبادل فيها الفرد والمجتمع الخدمات بطريقة جدلية تبادلية.. وقد تنتهي هذه العلاقة بمجرد الشعور بانقضاء المصلحة، أو بالتحايل على القانون، فالأصل العقدي والعباديّ للقضايا الاجتماعية في الإسلام، والمنهج الذي يجعلها جزءًا من كل لا تنفصل عنه...

هذا الأصل وهذا المنهج يجعلان للتكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم قسمات خاصة ينفرد بها عن كل النظريات الاجتماعية التي ظهرت في القديم والحديث...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa